شهيرات النساء في العالم الإسلامي

بقلم

صاحبة السمو الأميرة المصرية الجليلة قدرية حسين

نقله الى العربية

عبد العزيز أمين الخانجي

الجزء الثاني

الطبعة الاولى

حقوق اعادة الطبع محفوظة للمعرب

١٣٤٣ ــ ١٩٢٤

مطبعة السعادة بمصر

﴿ كلمة ﴾

نشرت قبل يومي هذا ، بعام ونصف ، الجزء الاول من (مخدرات الاسلام) ، فلاقى اقبالا واحتراما ، بين اصحاب العلم والعرفان ، من أهل لساني المنتشرين في الممالك والبلدان الآهلة بالاسلام .

وردت الي كتبهم ورسائلهم . تطفح بمعاني التزكية وعبارات التشجيع ، فاغتبطت لذلك ، اذ كنت ارى بنفسي ثمار البذور القليلة التي غرستها بيدي في حدائق المنفعة العامة . فشكراً للمولى سبحانه وتعالى وحمداً له على نعمائه . وأبدأ اليوم بالجزء الثاني من ربات الخدور ، لأضم خمس بطلات شهيرات على الاربعة السالفات . وزيادة الاعضاء في محفل ربات الخدور ، معناه زيادة التدليل والبرهان . وفي ذلك تقوية القناعة في الوجدان . فمعرفة بطلات الماضي أساس لرقي نساء الحاضر . والبناء المؤسس على قواعد ثابتة رصينة يبشر بالدوام والخلود

أولى البطلات في هذا الجزء . هي السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، كريمة فخر الانبياء . تتوج بذكرها الجزء الثاني لأنها فخر النساء .

البطلة الثانية : هي رابعة العدوية ، مثل الزهد والتصوف

الثالثة : هي الشاعرة الشهيرة الخنساء . تلك العبقرية الخالدة تلك التي فاقت شعراء الخلف بمراثيها .

أما الرابعة فأميرة المؤمنين زبيدة والخامسة الأميرة صبيحة ملكة قرطبة . وهاتان بطلتان حكمتا ردحاً من الزمن ، وسخرتا بلاداً لارادتيهما وصيرتا الشعب المحكوم منهما كالشمعة تفرغانه من قالب لقالب وفق هواهما . فهما لذلك مثالان للعظة ننسخ منهما دروس الاعتبار .

من قرأ ربات الخدور عرف تاريخ أيامهن وعاصرهن ونفذ الى مجالسهن الروحية فها أنذا أقدم هذا الجزء الى قارئاتى الراغبات في القدوة بسالفات العصر الاسلامى ، الى قارئاتى المتشوقات الى توسيع المدارك وشحذ القرائح ، لأكون واسطة الاتصال بينهن وبين محفل المخدرات .

سترى القارئة الكريمة ، في هذا المحفل المتضوع بعبير الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة . أشباحاً روحانية ، تتباين فى أشكالها وطراز لباسها عن المألوف فى محافل هذا العصر ، وستسمع القارئة العزيزة فى هذا المحفل دروسا تفيض بالحكمة وعظات بالغات . أما أجرى وثوابي فمحسوب بلا ريب في خزائن المولى الكريم عز وجل .

يجدر بي قبل اختتام كلمتي التنويه بذكر رسالة وردت الى من بين الرسائل العديدة الدالة على تقدير أبناء لساني لهذا العمل وهذه رسالة وصلتني من أمير البيان المرحوم (رجائي زاده اكرم بك) . وقد أردت اليوم نشرها لاذاعة ذكره واعلاء روحه الطاهرة .

كان للمرحوم قلباً كبيراً ، ومن الانصاف أن يلهج الانسان بذكر أصحاب القلوب . أطلب التوفيق من المولى للجميع آمين

الى صاحبة العصمة والكمال

الأميرة قدرية حسين هانم أفندى

تعلمين سيدتى ، ان الحقيقة الاجتماعية : « خير الناس من ينفع الناس» لاتفرق بين الرجال والنساء ولسموك من دلائل الفضل وأمارات العرفان ، بما تنشرينه بيننا من آثار قريحتك الوقادة منذ الصغر ، ما يجعلنى أن أرى لك عنوان (خير النساء) دون ما تستحقين .

تناولت بيد الفخار كتاب (مخدرات الاسلام) مع تلك الجملة التلطيفية في حق هذا العاجز ، وبدأت مطالعته فى الحال ، فأتممت قراءته فى مدة وجيزة وما كدت أنتهى من تلاوته وتصفح مزاياه ، حتى تكونت فى ذهنى عقيدة تقول : مثل هذا الكتاب الكامل ، الحاوى لمثل هذه الآراء الناضجة ، لاتستطيع الاتيان بمثله من بين شهيرات العصر سوى الأميرة أيدها الله .

كنت قرأت شيئاً عن أمهات المؤمنين وسيرتهن العبقة سواء أكان فى (قصص الانبياء) أم فى (روضة الاحباب) ولكن ما قرأته لم يكن منسقاً منظماً وفضلا عن ذلك فان أسلوب

(روضـة الاحباب) لا يتمشى مع روح العصر . و (قصص الانبياء) كتاب قيم جليل، قليل أمثاله، ولـكن العين تقع على السجع والتـكلف فى مواقع كثيرة منه فيضيع بهاؤه ورواؤه من نفس القاريء . أما (مخـدرات الاسـلام) فيفوقهما ترتيباً ويفضلهما اسلوباً.

مولاتى الأميرة

ثقى تماماً ان مواهب العرفان والفضيلة التى تتحلين بها تجملك فى أعلى المراتب التى ترنو اليها أنظار أفاضل الرجال والنساء . ففى قريحتك الوقادة، تلك القريحة التى لاتفتأ تعمل على توسيع دائرة معلوماتها الفنية وتحقيقاتها العلمية، وفى بيانك العذب، ذلك البيان السلس الساحر، مايدهش الالباب ويحير العقول .

قرأت كلمتك الاولى التى صدرت بها الكتاب بلذة ساحرة دفعتنى الى ادماج نفسى فى طيات الـكتاب، أقرأه متهالكا متشوقا حتى النهاية .

ما أعذبه بياناً وأسلسه اسلوباً وأملحه شرحاً! أكاد لا أتخطر كتاباً جمع مثل هذه المحسنات البديعية . فمثل هذا الاسلوب لهو السهل الممتنع .

يا صاحبة العصمة

إذا كان كتابك يترك في نفسى مثل هذا الاثر. وأنا من

صنف الرجال ، فما بال ربات الخدور اللواتي يسعدهن الحظ بتلاوته ؟ كلما فكرت فى ذلك ، وفى الفوائد الجليلة ، التي تجتنيها السيدات المصونات من قراءته ، وفى خطره الكبير من الوجهة الاخلاقية والاجتماعية ، لا يسعنى الا الركوع خاشعاً ، حاسر الرأس ، أمام ذلكم القلب الطاهر النابض فى سبيل الغيرة القومية ، الفائض الجائش فى سبيل العلم والاخلاق ، فأتمنى لك فى خضوعى وتقديسى عيشاً هنيئاً مرفهاً ، وتوفيقاً من المولى الى طبع ونشر الأجزاء التالية من كتابك اللطيف وعوناً منه جل وعز على اظهار مئات من مؤلفاتك النافعة الجليلة .

شعورى عن الكتاب وتقديراتى لمحتوياته ، لا تقف عند هذا الحد ، فهى كثيرة ان اتسع المجال اسردها على الوجه الذى أرضاه ، يعجز عن ذلك قلمي الذى أصابته الشيخوخة قبل صاحبه فلذلك يامولاتى أختم تصديعاتى بتقديم وافر الشكر والاعظام والتهنئة

استانبول ١٩ تشرين اول سنة ١٣٢٩ رجائى زاده
اكرم

- ٥ -

سيدة النساء

فاطمة الزهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

لم تعمر السيدة فاطمة رضى الله عنها ،طويلا : بل كان عمرها قصيراً كحياة الزهور التى تزهر وتذبل فى ربيع العمر إلا أننا مازلنا نرى حتى اليوم ثمار هذه الزهور النادرة ومازال أريجها الفياح يعطر عصور الاسلام جيلا بعد جيل . فهى اذاً دوحة نامية خالدة ذات غصون وفروع مادام الملوان .

لسيدة النساء صفحة فى التاريخ نزيهة نقية لا تقع العين منها على ضجيج الحوادث وجلبة الوقائع ولكن في سلسلة أيامها النقية الصافية مايجذبنا جذباً شديداً ، لان هذا الصفاء الدال على الشخصية العالية من الدواعى الكبيرة لجذب القلوب ولفت الانظار .

أمنا السيدة فاطمة رضى الله عنها ، ناصية مشرقة من أطهر النواصي وأنقاها وألطفها وأشدها احساساً فى الاسلام واصفاء

روحها الظاهر على وجهها المبارك الطاهر سميت بالزهراء .
لا أدرى كيف أجيل القلم فى تسطير سيرتها العبقة دون التعرض لسيرة والدها الرسول فخر الكائنات ؛ حياة كليهما متصلة ببعض اتصالا شديداً متماسكا فاذا عبرت عن نفسية أحدهما لا أستطيع تجاوزاً عن نفسية الآخر .

ومما يؤسف له أن مؤرخى الاسلام لم يتسع الوقت لأحدهم ليسردوا الناسيرة كاملة لهذه الكريمة أقول ذلك وقد شعرت اثناء كتابتى عنها حاجتى الى الرجوع الى ما يزيد عن عشرة كتب من امهات التاريخ وليتنى استطعت ان اخرج من معلوماتى المقتطفة منها بما يروى الغليل بل وقفت جهودى عند حد تكوين سيرة مختصرة فحسب أحوال بطلاتنا وشهيراتنا محاطة على الدوام بالغموض والابهام فان الاقدمين كانوا يعتبرون هذه من المسائل التى لايجوز اذاعتها كما هو ظاهر من كتبهم . اننا لنعلم اسماء سيدات عديدات لهن ذكر عاطر وشهرة فائقة فاذا حاولنا ان نحيط بأحوالهن احاطة تامة وان ندرك دقائق سيرهن ادراكا كاملا كلفنا انفسنا مالا نستطيع وحملناها مشقة كبيرة في هذا السبيل .

أقول مستسمحا سيدات اليوم انه كان لشهيرات الأمس عقلية رصينة وغاية ثابتة فى الحياة ومع ذلك فقد ظلت الوان المساعى التى بذلتها مخفية وراء ستور الاهمال .

نحن المسلمين قصرنا سعينا للحال ندأب من أجله فحسب؟ أما الاقتداء بالسلف وأن نكون قدوة صالحة للخلف فهذا أمر لا يخطر على بالنا ولا نفكر فى شأنه وقد كان من أمر اهتمامنا بالحال أن وصلنا الى مانحن فيه من سوء المآل . . . . . اننا لا نفكر في ماضينا ولا نعمل لمستقبلنا ، فنحن كتلة بشرية يعوزها الرحمة والارشاد .

أزيدهنا من قبيل الاستطراد ان لدينا من الآثار العتيقة الشيء الكثير ولكنها صغيرة كانت أم كبيرة فهى مشتتة مبعثرة أيان كان موطنها حتى انه لا يوجد بين ايدينا دليل صادق يرشدنا اليها ويدلنا على مفاخر اجدادنا. وهكذا التاريخ الاسلامى بين دفتيه شخصيات عالية نفخر كثيراً بوجودها ولكننا لا نعرف سوى أسمائها أما دقائق حياتها وتفاصيل شئونها فانها مبهمة غامضة لا يمكن الوصول اليها حتى اليوم .... فلو أننا عنينا بوضع تلك الشخصيات النادرة في معرض ذكريات الماضى لما أصبحنا غرباء عن عالمنا الاسلامى ولما كان مثلنا مثل السائح الغريب المفتقر الى من يرشده وهو فى بلاده

***

ولدت فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم

من خديجة الكبرى رضى الله عنها وقريش تبنى الكعبة بمكة المكرمة والنبي صلوات الله عليه ابن خمس وثلاثين أى قبل هجرته المباركة بسبعة عشر عاماً وكانت أصغر بناته وأحبهن اليه (١)

كانت سيدة النساء فاطمة، مباركة ذات ملامح جذابة ولون أبيض وقلب مفعم بالاحساس، صبيحة الوجه ذكية القلب

تتأثر القلوب البشرية الحساسة من مظاهر الصفاء والجفاء كثيرا ويكون نصيبها من لذائذ الحياة ومتاعبها أشد من سواها وكريمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من هذا الصنف من النساء ولهذا السبب نرى للاكدار والمسرات أثراً عميقاً فى حياتها المشرقة القصيرة .

سيرة حياتها فى التواريخ المعول عليها مقتضبة مختصرة فليس فيها ما يشير الى أفكارها الخاصة ولا يوجد فيها للأسف ما يشرح أيام حياتها قبل زواجها وبأى شأن من شئون حياتها كانت تشغل فراغ حياتها وانى مع علمي بمكانتها العالية من قلب رسولنا الهادى فلا أعلم شيئاً كثيراً عن نشأتها وأيام حداثتها وأي جو من الأجواء خلقته فى منزل أبيها صلوات الله عليه قبل زواجها ؟

---

١) الدر المنثور

الفصل الثانى

تم زواج السيدة فاطمة الزهراء من الامام على كرم الله وجهه في شهر رجب من السنه الثانية للهجرة النبويه المباركة، ولقد كانت سيدة النساء اذ ذاك فى أزهى أوقات الحياة ، فى الثامنة عشرة من عمرها أما الامام على فقد كان يبلغ الحادية والعشرين، كلاهما شخصيتان يحيط بهما جلال الايمان ونور الهدى ، متكافئتان متعادلان من كل الوجوه مناسب أحدهما للآخر كل المناسبة :

كلاهما عالى الفكر رقيق الحس حميد الخلق ،صبيح الوجه فكلاهما زوجان مفتونان بالمعالى ، عاشقان مغرمان بالمحامد.

بدأت حياتهما المشتركة التي امتزجت فيها الفضيلة بالكمال والاصالة بالجمال على هذا الوجه من الصفاء والاخلاص :

حضر الامام على ذات يوم من أيام السنة الثانية للهجرة الى الدار النبوية بنفسه ، وبعد أن دخل الدار سلم على الرسول فخر الكائنات وسكت (١)

فسأله الرسول ما اذا كان يطلب شيئا فرد عليه مجيبا بأنه حضر ليطلب كريمته السيدة فاطمة فقال له الرسول : مرحبا أهلا

---

١) السيرة الحلبية

ولم يزد على ذلك بل ظل ساكتاً بعدها مما اضطر علياً الى العودة محتاراً مدهوشاً

لم يستطع أن يميز وجه الحقيقة من رد الرسول فسأل بعضا من الانصار فبشروه وطيبوا خاطره وأفهموه بأن فى هذا الرد ما يشعر بالقبول والايجاب ففرح الامام واغتبط بذلك

ونرى الرسول صلوات الله عليه بعد قيام على يطلب كريمته السيدة فاطمة ويخبرها بهذا الامر ويسألها رأيها فلا تجيبه بل تطرق ساكتة فيعد خير الكائنات سكوتها علامة الايجاب والرضى فيقرر اتمام عقد الزواج . ثم يرسل بطلب على كرم الله وجهه ذلك ويسأله هل عنده من شيء فيجيبه أنه لا يملك سوى فرسه ودرعه فيأمره ببيع الدرع لتجهيز السيدة فاطمة بثمنها

يهرع على الى السوق فيبيع الدرع الى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً ويعود بالثمن معقوداً فى طرف ثوبه ويضعه أمام الرسول وهو يقول : « ها هو بدل الدرع يارسول الله » فيقبض الرسول بعض دراهم منها ويناولها بلالا ليشترى بعض الطيب والروائح ويسلم الباقى الى ام سلمى لتشتري الجهاز ، والى القارىء جملة ما بعثه الرسول مع ابنته سيدة النساء :

ثوبان من الصوف

خميلة

سواران من الفضة

طاقية

قدر

رحي

وعاءان صغيران للماء

وعاءصغير للماء

كوز

حشيتان : احداهما من ليف النخل والاخرى من قطع الجلد .

أربع وسادات: اثنتان منها محشوتان صوفاً والاخريتان ليفاً

هاهو جهاز سيدة النساء ، كريمة فخر الانبياء في السنة الثانية من الهجرة فما أبلغه درساً في الاقتصاد للامة الاسلامية !

***

وبعد أن أحضرت ام سلمي ذلك الجهاز ، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم جمعاً غفيراً من الانصار ثم خطبهم خطبة بليغة أثنى فيها على الله ماهو أهله وذكر فيها فوائد الزواج وختمها بقوله : قد زوجت فاطمة من على بأمر الله : — ثم دعا لهما عقب ذلك بحسن المعاشرة وبالذرية الصالحة وعند ماتم عقد النكاح على هذا الوجه البسيط أحضر الرسول للحاضرين من الانصار وعاء

فيه بعض التمر وقدمه اليهم بقوله : تخاطفوا :

هكذا تم زفاف سيدة النساء وابنة فخر الكائنات بلا ضجيج ولا ضوضاء ولكنه بالسرور يملأ أرجاء القلوب ، بالصفاء الذى يعدل الصفاء يشعر به المرء أيام الاعياد — ما السعادة ؟ أليست صفاء القلوب فاذا كان القلب مغموما كئيبا فما هي قيمة الحياة مهما زينت وأنيرت وحف بها أسباب الانس وألوان السرور !

بعد ان تفرق المدعوون طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمي وأمرها بأن تذهب بكريمته الى دار علي وبأن تخبرهما انه آت اليهما عن قريب ، فنفذت أمره وسارت بسيدة النساء الى دار زوجها

أما الرسول فقد صلى صلاة العشاء ويمم عقب الصلاة دار علي وفي يده قربة من الجلد تستعمل لسقي الماء وعند وصوله دار صهره قرأ عليها سورة المعوذتين وبعضا من الادعية وأمرهما بأن يشربا ويتوضآ من الاناء ثم أخذ قليلا منه ونثره على رأسيهما وعند ما أراد مفارقتهما وقدهمّ بالقيام كانت فاطمة رضى الله عنها تبكي فخاطبها بما معناه :

— « أي بنيتي قد تركتك وديعة عند رجل ، ايمانه أقوى من ايمان اى انسان آخر وعلمه اكثر من علم الجميع انه من افضل قومنا اخلاقا وأعلاهم نفسا »

أهدى نفر من الانصار الكرام سيدة النساء كبشاً ، و بضع كيلات من الذرة بمناسبة هذا الزفاف وكانت الدار النبوية قد ارسلت اليهما بعضاً من التمر والزبيب فأولما من هذه الاشياء وليمة حسنة

على هذا الوجه تم عقد الشركة القلبية بين سيدة النساء فاطمة والامام على كرم الله وجهه فلا يمكن المزيد على هذا النوع من الصفاء والضرب من البساطة – لأنْ يحب الانسان ويحب وليصير سعيداً ويسعد من حوله هذه امور تتوقف على مايؤسسه المرء من دعامات الحب فوق اسس الاخلاص ليعيش فى مأوى محكم يقاوم عواصف الدهر وأزمات الزمان وتزيده آلام النفس قوة وتجعله مواسم العمر ازهى وابهر مما كان

بمثل هذه المتانة والرزانة احب على زوجته سيدة النساء وببركة الدعاء النبوى كنت ترى اشراق الشمس وألوان السماء الصافية ونشوة الشباب وما الى ذلك من المعنويات مجتمعة فى دار على تقطع مراحل العمر مع ذينك القلبين الطاهرين وتغمرهما بانوارها الزاهية

كل يوم من هذه الايام السعيدة فى سلسلة العمر البشرى تلك التى تمر بين انوار السرور واضواء الابتسامات ، ألا تكون كالجواهر النفيسة قيمة بمقدار ما يكون نصيبها من تأثر

وانسياق فالأوقات المملوءة بالمحبة هي أوقات الياقوت وايام الامل تشابه الزمرد والازمان التى تمضى بالصداقة تحاكى الفيروز والاعمار التى تنقضى بالوئام والاتحاد تكون كاللآلى فهذه الاوقات النفيسة كم هى جديرة بالاهتمام والعناية ! هذه النفائس بعد ان يمضى وقتها وبعد ان تتزين بها النحور يجب ان تصان فى محافظ قيمة يجب أن يعنى بشأنها لئلا يصيبها أذي او يعتورها فساد او يلحقها غبار ينقص ويقلل من شأنها، فاذا ما انقضى ربيع الحياة ومضت انوار العمر وذبلت ازهار السرور والبسمات فان اخراج هذه النفائس من مكامنها للتملى بمشاهدتها واعادة الذكريات الحلوة برؤياها وتجريد خواطر الصبا بواسطتها، سعادة يالها من سعادة !

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر كريمته العزيزة بأن تقوم بما يخصها في هذه الحياة من شؤونه واعبائه أى كل ما يتعلق بادارة المنزل من خبز وطبخ وكنس وتنظيف كما كان على يقوم بما يترتب على الرجل من وظائف الحياة خارج المنزل، اذ كان يرعى الابل ويشترى لوازم بيته من السوق

وهما فى ذلك واذا بعلى يقول لزوجته يوماً (لقد سقوت حتى اسليت صدرى وقد جاء الله بسبي فاذهبي فاستخدمى) فقالت (وانا والله قد طحنت حتى محلت يداي) (١) فأتت النبى صلى الله

---

(١) روضة الاحباب

عليه وسلم فقال ماجاء بك أى بنية ؟ فقالت جئت لأسلم عليك واستحيت ان تسأله ورجعت فأتياه معاً هى وزوجها ، فذكر له على حالهما قال لا والله لا أعطيكما وأدع اهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم فرجعا : فأتاهما وقد دخلا على قطيفتهما اذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما واذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما فثارا فقال : « مكانكما الا أخبركما بخير مما سألتمانى فقالا بلى فقال كلمات علمنيهن جبريل تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثاوثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا اربعاً وثلاثين ، فسكتا وعملا باشارة الرسول.

لفاطمة الزهراء من الاولاد خمس ثلاث صبيان وبنتان وهم الحسن والحسين ومحسن وام كلثوم وزينب وقد مات محسن صغيراً (١)

كانت رضى الله عنها ذات عقل ودراية ، عالية النفس تجيد الشعر وتعرف مسائل الفقه والشريعة ولها المام بالتاريخ ولم يأخذها الغرور يوماً لعلو منزلتها فى الاسلام وكانت سلسة القياد حلوة اللسان تحب معونة الفقراء كزوجها على وقد كان اكثر خرجه في وجوه البر والقرب فكان له ارتفاع طائل من أملاكه

---

(١) الفخري

يخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرباس وبالقرص من خبز الشعير (١)

مرض الحسن رضى الله عنه ذات يوم فى ابان صباه واشتدت عليه وطأة المرض شدة أقلقت بال ذويه وبينما كان سيدنا على كرم الله وجهه فى المسجد مع نفر من اصحابه ، مطرقاً حزيناً على حالة ولده واذا بهم يشيرون عليه بأن ينذر أمر الله اذا عاودته الصحة (٢) ولما عاد الى داره نوي أن يصوم ثلاثة أيام لوجه الله فاستصوبت السيدة فاطمة هذا الرأى وشاركته فى الصيام وقد اعتقد الحسين أيضا أن في مثل هذا النذر شفاء أخيه فنسج على منوال أبويه فى الصيام وكان الامام على كرم الله وجهه قد أحضر مقداراً من الشعير من احد معارفه فطحنت السيدة فاطمة نحو ثلثه وجعلته خمسة أرغفة وبينما كانت هذه العائلة العلوية المباركة على المائدة انتظاراً لوقت الافطار ساعة الغروب، مر فقير على بابهم وسأله شيئاً من القوت فترك على مابيده وتبعته السيدة فاطمة وناولا الرجل جميع الأرغفة المعدة للطعام ذلك اليوم وقد حدث لهما ذلك فى اليومين التاليين من صيامهما حتى ان العائلة جميعها اضطرت ان تمسك عن الطعام والشراب ثلاثة ايام متواليات اللهم الا قليل من الماء يترشفانه رشفا ولكن الله قبل صيامهم اذ ان الحسن

(١) الدر المنثور ٢ الفخرى

اخذ يتماثل نحو العافية فى اليوم الرابع ففرح والداه بذلك فرحاً شديداً واخذا الحسن والحسين الى جدهما الرسول صلوات الله عليه وسلامه وقصا عليه ما وقع لهما وقد اخبره الأمام (١) كرم الله وجهه مالاقته السيدة فاطمة من عناء وشدة فى ايامها الثلاث فبشرهما النبى فخر الكائنات بأن الله قبل منهم اصيامهما وبرهما

لا أدرى بأي لسان أصف مثل هذا العمل الصالح وكيف اصور للقارئ أمثال هـذه النفوس الطاهرة . أمثال هذه الحوادث تبعث الامل والتسلية فى النفوس وتغرى المرء بالاقتداء بمثل هذه التضحيات الدالة على الكمال الخلقى .

كانت السيدة فاطمة امرأة من بنات حواء مثلنا ، ولكنها نزعت طول حياتها الى العلو ووقفت دقائق العمر على مافيه صلاح النفس وكمالها ولنا من ذلك مثال جدير بالاقتداء ، ودرس اخلاقى بليغ .

تلك الحياة النزيهة الصافية يصيبها مايعكر صفاءها ذات يوم فنرى عليا في طريقه الى المسجد مغموماً كئيباً يتنفس الصعداء حتى اذا وصله وصلى قليلا تغلب عليه النعاس فنام منزوياً فى أحد الاركان . فرآه الرسول على هذه الحالة وكان قد علم بالنزاع الحاصل بينه وبين كريمته السيدة فاطمة فتقدم نحوه

---

(١) الفخرى

ومسح ما عليه من التراب وهو يقول : « ما جلوسك هنا يا أبا تراب (١) » ثم أمره بالعودة الى داره . فأصبح يلقب بذلك منذ ذلك وكان ذلك من دواعى سروره

***

كانت السيدة فاطمة تشابه اباها فى كلامها وتحاكيه صلى الله عليه وسلم فى مشيتها محاكاة تامة تثير دهشة الناس اما محبتها لوالدها فخر الكائنات تلك المحبة الخارقة للعادة ، فان الكتب والاسفار مشحونة بقصائدها واحوالها وحوادثها في هذا الصدد .

وأستطيع أن أقول ان هذه المحبة التى تفوق كثيراً محبتها لزوجها وأولادها كانت محور حياتها النزيهة والعنصر الأساسى فيها . فان آثار الشفقة والحنان التى كان يظهرها لها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ونصائحه الأبوية وكلماته الطيبة . هذه المعنويات هى التى سطع بريقها وأشرق نورها فى تلك الحياة الطاهرة التى دامت ثمانية وعشرين ربيعاً . فصحبتها الروحانية لوالدها الرسول هو الذى رفع شخصيتها وألقي شعاعا من النور على نسويتها

قد كانت عالية النفس بفطرتها ولكنها بهذا الاتصال الروحى تمكنت من أن تكون ذات شخصية لاهوتية وأن تكون مظهراً لعنوان سيدة ربات الخدور .

---

(١) تاريخ الخلفاء

كانت السيدة فاطمة الزهراء محبوبة من أهلها يحبها الجميع أما هي فقد كانت مشغوفة بحب والدها اكثر من أى انسان آخر كانت تحب الرسول فخر الكائنات من اعماق القلب والروح . وقد تركت ذكريات حسنة فى قلب كل انسان عرفها أثناء فترة السنوات العشرة التى مضت من يوم زواجها حتي ساعة وفاتها ، فكان الامام على ينفذ كل طلب لها ويعمل بكل كلمة تقولها وكانت أولادها وعيالها يطيعونها ويحترمونها فى كل حين ولحظة .

كانت تحب أولادها وتعتني بشأنهم . وكانت في صلاتها وعبادتها ، فى مبراتها وخيراتها من أكثر السيدات أنساً في محفل ربات الخدور .

روى عنها أحاديث نبوية كثيرة ونظمت قصائد ذات أبيات عامرة وأظهرت دراية ومهارة فى حل كثير من المعضلات .

على هذا النحو البديع مرت حياتها المذبة حتى السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية المباركة ، تجبر القلوب الكسيرة وتعين المحتاجين وتغيث الملهوفين . وقد ظلت هذه الحياة السعيدة على هذه الوتيرة حتي السنة الحادية عشرة من الهجرة أى في العام الذى انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه فتناثرت أوراق تلك السعادة وأظلم قلبها بعد ان غاب عن سمائه تلك النجمة

العالية التى سطعت فيه ردحاً من الزمن وهكذا الدهر لا ينقضى يوم حتى يعقبه ليل

أقبلت ذات مرة تزور الرسول صلوات الله عليه وكان معه السيدة عائشة فقال مرحباً بابنتى ثم أجلسها عن يمينه ثم أسر اليها حديثاً فبكت ثم أسر اليها حديثاً فضحكت فقالت السيدة عائشة « ماوأيت كاليوم أقرب فرحا من حزن ؟ فسألتها عما قال ؟ فقالت ما كنت لأفشى[1] على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سره ، فلما قبض سألتها فأخبرتها « انه قال : ان جبرائيل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وانه عارضنى العام مرتين وما أراه الا قد حضر أجلى وانك اول أهل بيتى لحوقاً بى ونعم السلف انا لك فبكيت ، فقال : ألا ترغبين ان تكونى سيدة نساء العالمين فضحكت »

لم تترك السيدة فاطمة أباها الرسول لحظة واحدة وهو على فراش الموت فقالت له يوما وهى تبكى : « انك يا أبي تعانى سكرات الموت هلا أقمت من خواص صحابتك من يليك فى أمر النظر في شؤون العامة قبل ان تنقل من دار جهادك الى الآخرة مقر خلدك وسعادتك . وها قد بدأ النحول والاعياء يظهران عليك فلو تعلم مقدار محبتى لك انك قد خلفت لى ذكريات

(١) العقد الفريد

كثيرة تذكرني بك أما أنا فلا أملك شيئاً أعده . قلبي أسيف ملؤه الحزن أحاول اليوم تعزيته انني سأفقدك فوامصيبتاه وما أشد بلواي اما أنا لا يرثى لحالى انسان» فأجابها الرسول بما معناه أى :

« بنيتي هذا يوم لم يبق لى فيه شأن مع أحد وسوف أرى جزاء ماصنعت ان خيراً وان شراً لقد علمت حالهم ومضيت في أمرهم بالعدل والله على ما أقول شهيد . حافظت على التأنى وجاهدت من أجلهم وارتديت لباسهم وصليت معهم دون أن يعتريني فخر أو كبر ولم أتخذ لنفسى ما يشبع جوعى ولم أرتد ثوبا ناعماً يرفه جسمي بل قضيت حياتى فى فقر وضرورة فاذا انتقلت الي جوار ربى لينظروا فى شأن أنفسهم بنفسهم وأعطى اليوم لباسى الذى أتقى به البرد والغطاء الذى أتدثر به وتلك الحشية المصنوعة من ليف التمر التي اجلس عليها وقاية الرطوبة ». . عند ماتوفى صلوات الله عليه لم يكن معه سوى السيدة عائشة وعمه العباس وكريمته فاطمة وزوجها الامام على كرم الله وجهه.

لقد حزنت الزهراء حزناً شديداً لوفاة فخر الكائنات، ودام حزنها الى أن توفاها الله، فلم يظهر على وجهها أمارة من السرور طول تلك المدة.

خيل اليها بعد مصيبتها ان العالم كئيب مغموم وان الشمس مظلمة والسماء مغبرة قاتمة . ذلك لان المناظر التى يراها المرء من

خلال الدموع تظهر غبراء باهتة لونها يغم الناظرين . كثرة دموع اليأس تقلل بهجة الحياة وتنقص مقدار اذواقها فاذا بكى القلب دمعت العين . ومافي العالم من جاذبيـة وأشواق يتوقف على ما يفيضه القلب من السرور والبشر اذ تنعـكس أضواء العالم على مرآة القلوب فاليوم الذي نشعر فيه بالحزن والكآبة لهو يوم اغبر لاطعم ولا لون له أما ايام سرورنا فهي ايام بيضاء ذات الوان يشع من خلالها كل بريق للانس والصفاء . وكما ان رونق الحياة متوقف على نشاط الانفس فهناك علاقة وارتباط بين جواذبها واحساس ذواتنا .

وقد أعقب بكاء الزهراء فترة هى فترة السكون والهدوء ودل ذلك على أن ارتباطها بالحياة الدنيا قايل آخذ في الانحلال رغم ما كانت تشعر به من الحنو والمحبة الى أهل بيتها ، وكانت تشعر بأن فراقها سيكون سهلا مستساغا لانه سيوصلها الى حبيب قلبها ، الى والدها الرسول صلوات الله عليه

الرابطة القلبية التي تربطنا بهذه الحياة الفانية منشؤها أننا نعيش فيها مع من نحبهم فكل منا يربطه بالكتلة البشرية رباط معنوى كالخيوط الحريرية المتماسكة في شيرازة واحدة فاذا انحلت احداها قلت احدى الروابط واذا ما انفصمت عراها بمرور الزمن لم تبق لنا علاقة بكائن ما وأصبحنا ننظر الى الحياة بجمود وهدوء

وقد يحدث احيانا ان انفكاك رابطة من اقرب الروابط الى قلوبنا — كرابطة الزهراء بأبيها الرسول — يؤدى الي فصم عرى الروابط الأخري فلا نشعر اذ ذاك الا بالأمل يحي فى النفوس انتظاراً ليوم الوصال.

زارت الزهراء قبر ابيها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بأيام واخذت بيدها حفنة من ترابه واستنشقتها بشوق زائد واخذت تبكى ولهة ثم لم تمالك ان فاهت بهذه المرثية :

اغبر آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
والارض من بعد النبي كئيبة أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فلتبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكل يمانى
وليبكه الطود المعظم جوه والبيت ذو الاستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك وصفه صلى عليك منزل الفرقان

فلم يسمعها انسان حتي بكى معها وبعد ان افاضت دموع العين بما في القلب من نيران الحزن عادت الى منزلها واجمة مطرقة؟

الفصل الثالث

نصب الخلافة

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتفعت الضجة عليه ، دهش اصحابه دهشة عظيمة ، وطاشت احلامهم ، والخموا واختلطوا ، وصاروا فرقاً ، وتفرقت احوالهم ، واضطربت امورهم ، فكذب بعضهم بموته وصمت آخرون ، فما تكلموا الا بعد التغير ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وحق لهم ذلك للرزية العظمى ، والمصيبة الكبري ، التى هي بيضة العصر ويتيمة الدهر ، ومدي المصائب ومنتهى النوائب .

ولقد سرى هذا الاضطراب النفسى الى اصحاب الرسول وأنصاره الكرام وزاد فى حيرتهم الاشاعات التى راجت عن خلافة أبى بكر لم يعيبوا على ابى بكر شخصيته وانما حنقوا لتوليه أمرهم بلا مشورة . ثم سمت رجالات من المهاجرين والانصار الى سقيفة بنى ساعدة ، وهناك بعد جدال وحوار — بسطوا ايديهم الى ابى بكر يبايعونه وكف علي عن البيعة كرامة

لزوجته الزهراء ، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً . وانضم اليهم ابو سفيان بن حرب رأس بني أميـة والزبير بن العوام بطل قريش وحواري رسول الله وأقام علي والزبير بدار فاطمـة لا يبرحانها (١)

وقد أدي ذلك الى سعي عمر بن الخطاب بقبس من النار الى بيت علي كرم الله وجهه ليحرقه وهناك خرج له الزبير والسيف مصلت بيمينه ، يريد ان يصدع به رأس عمر ، ثم تحايل عليه عمر ومعه خالد فأخذاه وأخذا من بعده علياً للمبايعة ولما رأت السيدة فاطمة زوجها يساق قسراً فولولت وقالت :

يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله .

الا أن عمر كان قد ساق عليا الى مجلس البيعة ، حيث ابو بكر ، فقام له وقال واعتذر اليه بأن بيعته كانت فجأة وانه لم يقبلها طمعاً فيها بل حياطة للاسلام ووقاية من شر الفتنة فأجابه الامام علي والزبير :

— مانفسنا عليك ماساقه الله اليك من فضل وخير ولكنا نرى ان لنا في هذا الامر شيئاً فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد

وعند ماسكنت الخواطر وهدأت الثوائر قام ابو بكر الى دار فاطمة وطلب منها الصفح عن عمر فصفحت عنه . ولقد تمكن ابن الخطاب ان يملك روعه فى مثل تلك العاصفة الهوجاء التى اصابت الاسلام فسعى بكل ما فيه من قوة وجلد حتى انقذ المسلمين من شر فتنة كادت تقع فتقوض الاسلام من اساسه — رضى الله عنه . (١)

تلك مسألة الخلافة وقد كادت تزعزع بنيان الاسلام وقد كادت تتخضب فيها بالدم رأس من أرفع رؤس المسلمين لولا عناية من الله أوقفتها عند حدها . لقد كانت همة عمر سبباً فى انقاذ روح الاسلام للمرة الثانية . لقد التزم عمر أخف الضررين فهاجم دار السيدة فاطمة ولكنها انتهت بالصلح وعادت بالصلاح وفهمت سيدة نساء العالمين من هو العامل المجد فيها ؛ ولم تمتنع عن مصالحته فما اسمى تلك الفضيلة ! ان القلم ليعثر عياً وعجزاً حين يعرض لتلك الفضائل الملكية المقدسة التي كمل الله بها سيدة نساء العالمين .

بعد وفاة أبيها فخر الكائنات ببضعة ايام ناولت مولاتها بعض الدراهم وطلبت منها ان تنادى فى السوق من يقبل صدقة بنت رسول الله واذا قبلها أحد ان تحضره اليها ففعلت وكان الرجل من فقراء

---

(١) شرح ابن ابى الحديد

المغرب من بلاد البربر فحدثته السيدة الزهراء حديثاً مآله ان الرسول أنبأها بأن ابنيها الحسن والحسين يستشهدان فيفر اولادهما الى المغرب ويحميهما أهل البربر(١)

انني لا أتمالك من الحيرة تستولى نفسى عند سرد هذه الحادثة . فقد حدث أن استشهد الحسن والحسين وفر اولادهما الى المغرب وحماهم المغاربة من اهل بربر ثم تفرعت من اصولهم الدولة الفاطمية الزاهرة التي حكمت شمالى افريقيا من أقصاها لأقصاها .

كان العالم الاسلامى مظهراً للمدهشات من الوقائع ، تظهر حيناً ثم تختفى آونة أخرى كالحادثات الجوية فلا يبقى من أشكالها وأحوالها فى لوحة الخاطر سوي أشباح ضئيلة .

---

(١) الدر المنثور

الفصل الرابع

حادثة الفدك

ما دامت الدنيا فالمنازعات باقية لا تزول . وما دام الملوان فقانون تنازع البقاء سرمد خالد ، يعمل الناس به ويزجون أنفسهم فى سبيل تنفيذه .

اعترضت حادثة الفدك أيام الأحزان والأكدار التى قضتها السيدة فاطمة الزهراء عقب وفاة ابيها فخر الكائنات فكانت ضغثاً على ابالة . وفدك هذه عزبة نخل كانت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، يصرف منها على أهل بيته وينفق الباقى فى مصالح المسلمين وبعد أن توفى صلوات الله وسلامه عليه طلبت السيدة فاطمة فدك من سيدنا ابى بكر ويروى المؤرخون الحادثة على الوجه الآتى (١) : حضرت السيدة فاطمة ذات يوم الى خليفة رسول الله وقالت له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى فدك وشاهداى على وأم أيمن .

فأجابها أبو بكر

(١) شرح ابن أبى الحديد

— لا أرتاب فيما تقولين وقد اعطيتك فدك

ثم حرر لها حجة بذلك على قطعة من الجلد وسلمها اياها وفيما هى عائدة الى دارها قابلها عمر وسألها من أين هى آتية فأخبرته بما تم فلم يرق ذلك فى نظره وأخذ الحجة من يدها ورجع بها الى ابى بكر وسأله عن الحقيقة فاصدقه الخبر فقال ان علياً يريد أن يملك فدك وأم أيمن امرأة. ومحا ما على الحجة من كتابة ومزقها فى الحال وقد اغبرت فاطمة من ذلك وراجعت ابا بكر وهى تعلم قول ابيها (اننا معشر الأنبياء لا نورث)وعند ما بلغها اجماع ابى بكر على منعها لاثت خمارها واقبلت فى لمة من حفدتها ونساء قومها نطأ فى ذيولها ،ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلت على ابى بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والانصار فضرب بينها وبينهم ريطة بيضاء ، ثم أنت أنة أجهش لها القوم بالبكاء ثم امهلت طويلا حتى سكتوا من فورهم ، ثم قالت:

« أبتدئ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد ، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم » وذكرت خطبة طويلة جيدة قالت في آخرها :

« فاتقوا الله حق تقاته وأطيعوه فيما أمركم به فانما يخشى الله من عباده العلماء ، واحمدوا الله الذى لعظمته ونوره ، يبتغى من

فى السموات والارض اليه الوسيلة ؟ ونحن وسيلته في خلقه ونحن خاصته ومحل قدسه ونحن حجته في غيبه ونحن ورثة انبيائه أنا فاطمة ابنة محمد أقول عوداً على بدء وما أقول ذلك سرفاً ولا شططا فاسمعوا بأسماع واعية وقلوب راعية لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون آبائكم وأخا ابن عمى دون رجالكم. ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لى. أفحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون. إيهاً معاشر المسلمين أيبتز إرث ابي. أبى الله أن ترث يا ابن أبى قحافة أباك ولا أرث أبي لقد جئت شيئاً فرياً. فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم». ثم عدلت الى مسجد الأنصار فقالت:

« يامعشر البقية وأعضاد الملة وحضنة الاسلام ماهذه الفترة عن نصرتى والونية عن معونتي والغمزة فى حقى والسنة عن ظلامتى اما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (المرء يحفظ فى ولده)؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ما أتيتم ان موته لعمرى خطب جليل استوسع وهنه واستبهم فتقه وفقد راتقه وأظلمت الأرض له

وخشعت الجبال وأكدت الآمال . أضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وازيلت المصونة وتلك نازلة اعلن بها كتاب الله قبل وفاة رسول الله . إيها بنى قيلة، اهتضم تراث ابى وانتم بمرأي ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والعدد ولكم الدار والجفن وانتم نخبة الله التى انتخب وخيرته التى اختار ألا وقد ارى ان الجلدتم الى الخفض وركنتم الى الدعة فجحدتم الذى وعيتم ألا وقد قلت لكم ماقلت على معرفة منى بالخذلة التي خامرتكم وخور القناة وضعف اليقين فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر ناقبة الخف باقية العار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة فبعين الله ما تعملون وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

فأجابها ابو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يابنة رسول الله والله ماخلق الله خلقاً أحب الى من رسول الله ولوددت ان السماء وقعت على الارض يوم مات ابوك والله لأن تفتقر عائشة احب الى من ان تفتقري اترانى اعطي الاحمر والابيض حقه واظلمك حقك وانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما خلفناه صدقة ولست تاركا شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به الا عملت به » ثم تعهد لها بعد ذلك

ان يدفع اليها مايخصها من نصيبها وينفق باقيها فى شئون المسلمين فقامت من مكانها وتوجهت نحو قبر ابيها تستشهد بأبيات ملؤها الشكوى واشهاداً ابيها على ما كان من هضم حقها . ثم نهج عمر في خلافته على منوال ابي بكر فى صدقة فدك وكذلك كان شأن عثمان وعلى رضى الله عنهم وعند ماتوفى الحسن بن على في خلافة معاوية بن ابى سفيان قسمها بين مروان بن الحكم ويزيد بن معاوية وعمر بن عثمان بن عفان ـ وأما فى خلافة مروان بن الحكم فقد انتقلت جميعها اليه من طريق الميراث الى ابنه عبد العزيز وعند ما ولى الأمر عمر بن عبد العزيز اعادها جميعها الى اولاد فاطمة

ثم انتقلت الى العباسيين عند ما آل اليهم الحكم وبأفول دولتهم انتقلت الى الفاطميين وكانوا يوزعون ثمرها على الحجاج الى ان قطعت اشجارها فانتهت بقطعها حادثة فدك التى امتدت عصرين متواليين .

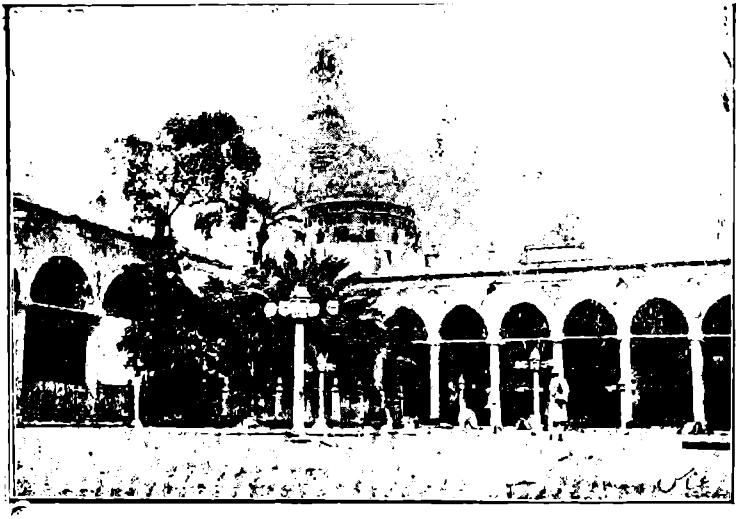

الحرم المدنى

- ٦ -

تاج الرجال

رابعة العدوية رضى الله عنها

الفصل الخامس

وفاة الزهراء

عاشت سيدة النساء بعد ابيها فخر الكائنات ستة اشهر وتوفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة احدى عشر هجرية بالغة من العمر عشرين سنة .

وقد كانت بجانبها ساعة أن حضرتها الوفاة ام سلمي ، فقالت لها :

اسكبي لى غسلا يا أماه

فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ثم لبست ثيابا لها جدداً ثم قالت

« اجعلى فراشي وسط البيت » فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ثم قالت : « انى مقبوضة الساعة وقد اغتسلت فلا يكشفن لى احد كتفاً » ثم دفنت ليلا فى البقيع وصلى عليها ابو بكر والصحابة والانصار ونزل قبرها الامام على والفضل بن عباس رضي الله عنهما .

وبعد ان دفن الامام على زوجته المحبوبة جاء الى قبر الرسول وناجاه بهذه الكلمات :

« السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قل يارسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدى ، إلا أن لى في التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز . فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك ، فانا لله وانا اليه راجعون فقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد . . وأما ليلى فسهد ، الى أن يختار الله لى دارك التي انت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لاقال ولاسئم، فان أنصرف فلاعن ملالة، وان أقم فلاعن سوء ظن بما وعدالله الصابرين »

بلى ان الله مع الصابرين ! ان الله الذى يبتلى عبده بالمصيبة، يهبه صبرا يعادل مصيبته ويوازى نكبته ، يرفع تلك القلوب الحزينة التى أحرقها بنار الالم ويجليها .وشدة النكبة وعظم قدرها تكون بنسبة مافى القلوب من حس فلذلك نري القلوب الحساسة تزيدها صدمات الحزن جلاء وقدراً واعتباراً. الأكدار سلم يرقاه المرء ليصل الكمال. اما السعادة فتسوقه الى مهواة الانانية . القلوب السعيدة

محرومة من مظاهر الرحمة والتسامح أما القلوب الطافحة بانواع الهموم ففيها منافذشتى للانس فسرعان ماتأتلف بأحزان الآخرين وتختلط بآلمهم وتفهم حاجاتهم .

ينظر المتألمون الى الحياة بنظرات ملؤها الشفقة وآيات الحنان وكذلك كان الامام على كرم الله وجهه اثر عليه الخطب وكان وقعه شديدا على قلبه الحساس . كان يبكى دون أن تطفىء الدموع نيران قلبه . كيف لايحزن وقد اشتد يتمه بعد فراق زوجته عقب فراق الرسول صلى الله عليه وسلم

فراق هذين الحبيبين ؟ حرمان ممض وجرح فى القلب لايندمل وكلما فكر فى الايام اللذيذة التى قضاها بصحبة سيدة النساء وتذكر خطر وقعها فى قلبه الطاهر ، وكيف كانت أيام عمره التى عاشها والتى مات بموتها ، ازدادت لوعته واشتدت كآبته فلا يجد السلوى الا فى احضان قبرها ، فيترك روحه تطير سابحة فوق التربة ، تعانق روح حبيبته وتناجيها وتكشف لها عن مكنون مضضها وجواها . كان يسائل الترب والاحجار (١) ينتظر منها رد السؤال ولكن اين لها ان تجيب ؟ . . .

***

ألطف الزهور وأقربها الى الحس وآخذها باللب ، تلك التي

---

(١) الدر المنثور

تنشر أريجها وقت غروب الشمس ثم تنام فى مقتبل الليل ، أجمل الورود أقصرها عمراً .

حمرة الشفق وبهاء الفجر لايدوم جمالهما طويلا بل لمدة محدودة فالنغمات والشعر والسرور ، كل ذلك معنويات سريعة الفناء . كذلك الابتسامات والغمزات ومعاني الحب ، ذكريات للروح محدودة مدتها ونجوم تبدو فى سماء الحياة قصيرة أمدها .

الربيع بهجة الحياة ، وخير مواسم الربيع أقربها زوالا واسرعها ذبولا كذلك نفائس الحياة : الورود والزهور والنغمات وساعات الفجر وذكريات الشباب والمواسم ، أبهجها والطفها وأملكها للنفس اقصرها اعماراً .

لأن يحب المرء ويحب فيعيش محترما معززاً مدللا زمناما ، ثم يأفل بعد ذلك كما تأفل ساعات الغروب ، تاركا وراءه ذكرى خالدة وألماً ممضاً وأسفاً دائماً ، مرتفعاً نحو النور والسرور والسعادة لأن يكون محبوبا على الدوام . . . فينثر حوله البسمات والنغمات ليعيش فى جو من الأنس والطرب والشعر ثم يترك ذلك وراءه فتبقى فى القلوب ذكراه الممزوجة بالحزن واللوعة والاسى ، تلكلم تاريخ القلوب المحبوبة كثيرا الآفلة سراعا

من بين هذه القلوب ، قلب سيدة النساء فاطمة الزهراء ،

وتاريخ حياتها يستمد من تلك العناصر المعنوية . وكما كانت الرحمة والشفقة من لوازم تلك الحياة ومن ألصق الشئون كذلك المحبة والظرف من أدوات زينتها وكمالها .

كانت قرة عين والدها والزوجة المحبوبة للامام على والام الحنون للحسن والحسين رضى الله عنهم وقد امتازت فى صفاتها الثلاثة كابنة وزوجة وأم بمزايا قل أن تجتمع في سواها وبفضائل مزدانة بالجلال والكمال

كانت حياتها الزوجية مع الامام كرم الله وجهه قصيرة جميلة وكذلك أعمار الورود الجميلة والزهور النضرة ، فمضت في ربيع العمر كما تمضى ألوان الغروب وحمرة الشفق بعد أن تترك وراءها ذكريات من الحسن والجاذبية ، فتبدل بموتها جمال الربيع وانقلب الى خريف ممض لو عاشت سيدة النساء ، لما ذكرها المسلمون الى يومنا هذا باللوعة تتملك أفئدتهم ولما كنا نتحدث عن أحزان الامام على بمثل هذه الشدة

مثل الشخصيات الماضية نذكرها بالاحترام والاعظام ونبحث عن أحوالها الخاصة بوضوح وجلاء أملا فى تجديد العهد ورغبة فى احياء الاسم ، كمثل الصور الشمسية التى نحتفظ بها لرجال نعرف اسماءهم ولا نتذكر اشخاصهم . وكلما تجسمت أشكالهم وانظارهم واشباحهم أمام أعيننا ازددنا حبا لهم واشفاقا

عليهم . وكما نعيد فى الاذهان ذكريات الايام الحلوة التى نقضيها فى مقتبل العمر كذلك نرى جمالها ماثلا فى الذهن أما الذين نحفظ فى الذاكرة أيام حياتهم بالتفصيل ونستعرض في المخيلة ابتساماتهم ودموعهم وآلام نفسهم فاننا نذكرهم دائما بشيء من الاسف والحزن يتملك أنفسنا :

الا انما الدنيا كأحلام نائم ‏ ‏ ‏ وماخير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامر لذة ‏ ‏ ‏ فأفنيتها هل أنت الا كحالم

فماقيمة المنازعات والمجادلات وانواع المنافسات؟ ماقيمة كل ذلك مادامت دنيانا احلام نائم ومادامت سعادتنا فيها سعادة الحالم؟

رابعة العدوية

السيدة رابعة العدوية هى أم الخير بنت اسماعيل ومن موالى آل عتيك (١) ، مولدها البصرة واننا وان كنا لا نعلم تماما تاريخ ميلادها من المراجع التى بين ايدينا الا انه نظرا لوفاتها عام ١٣٥ (٢) ولانها عاشت نحو ثمانين سنة فانها تعتبر بحق من ربات الخدور فى اوائل العصر الهجري .

افنت حياتها فى العبادة والتقوى واصلاح النفس وكبح جماح الشهوات فقد كانت نموذج الكمال فى عصرها ، آثرت كل تضحية وعاشت فقيرة معوزة لتصل الى هذه الدرجة العالية ، فهى بحق من اعيان عصرها فى الاسلام

كانت تفوق نساء زمانها وتمتاز عليهن لا بالزهد والتقوى فحسب ، بل بفضلها وعرفانها ، بعلمها وأدبها ، حتى رنت اليها الابصار وتطاولت نحوها الاعناق . كان يتلذذ بصحبتها ويستفيد من معاشرتها أمثال حسن البصرى التقى الشهير ، وشقيق البلخى الصوفي العظيم ، وسفيان الثوري المجتهد الكبير ، والملك دينار ،

---

(١) ابن الجوزى (٢) ابن خلكان

حاكم الكرج والشاعر البليغ كل هؤلاء الافاضل صاحبوها وجالسوها وحضروا مباحثها فى الدين والعلم فاجلوها وقدروا عقلها وذكاءها ، وأعظموا حال زهدها وتقواها

مات أبواها فى مقتبل عمرها فنشأت فى وقت استحكمت فيه حلقات الغلاء والقحط في مدينة البصرة ، فأوقعها نكد الطالع تحت أسر رجل ظالم مستبد احتبسها عنده مدة ثم باعها الى رجل آخر بعد ان اذاقها أنواع العسف والعذاب ولم يكن حالها فى هذه الدار الثانية خيرا مما كانت عليه فى الاولى . فقد تعذبت كثيراً وقاست شدة مريرة قابلتهما بصدر رحب دون تململ أو تذمر ، اذ كانت ترى الشكوى مزرية بها

وبينما كانت ذات يوم تهرول مسرعة مجتازة ازقة البصرة رماها أحد المارة بنظرة منكرة فارادت أن تعرض عنه ملفتة وجهها فزلت قدماها فسقطت على الارض فانكسر زراعها . لم تقو على النهوض من مكانها فظلت مغشياً عليها مدة لشدة ما أصابها من الالم . وعند مارجعت الى صوابها رفعت نظرها خاشعة الى السماء تناجى ربها : « رباه ، قد انكسر ذراعى وأنا أعانى الألم واليتم ، وسوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه ، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحي ويفكك أوصال الصبر فى نفسى ، منشؤه ريب يدور بخلدى وهل أنت راض عنى يا الهى ، هذا

ما أتوق الى معرفتـه . » وما كادت تتم نجواها حتى سمعت هاتفاً يقول : لك يا رابعة عند الله مرتبة تغبطك الملائكة من أجلها (١) فنسيت بعد ذلك ما اعتراها من الآلام وقفلت راجعة الى دار سيدها آمنة مطمئنة .

لم ينم سيدها ذات ليلة فسمع صوتا يرن في ارجاء داره فخرج من غرفته يتلمس مبعث الصوت حتى قادته اذناه الى غرفة رابعة حيث رأى ما أدهشه وحير لبه رأى رابعة تعبد ربها بخشوع ينم عن ايمان عميق فوقف يراقبها ويسمع مناجاتها واذا بها تقول « ربى انك تعلم أن أشد ما أتوق اليـه هو عبادتك وتأدية مالك من حقوق ، ولـكننى أسيرة لا أملك حريتى الشخصية فلا سبيل الى تحقيق هذه الغاية فلتعذرنى يا الهى »

فبهت سيدها ووجد من العار ابقاء فتاة طاهرة عفيفة كرابعة تحت ذل الاسر فلما مثلت امامه فى اليوم التالى قال لها : « انت حرة طليقة يارابعة ولك الخيار في أن تمكثي هنا أو تذهبي الى حيث تشائين » فآثرت هي أن تترك دار مولاها لتعيش من كسب يدها ومنذ ذلك اليوم أصبحت حياتها درسا ممتعا وعظة بالغة اذ وقفت حياتها على أعمال البر والخير ، واضعة نصب عينها الدستور النبوي الجليل « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك

---

(١) تذكرة الاولياء

تموت غداً » فامضت الثمانين عاما التى عمرتها لم تخل بحرف من هذا الحديث الشريف اذ كانت ترى لذة فى تضحية راحتها الدنيوية فى سبيل سعادتها الخالدة

تجاذبت ذات يوم اطراف الحديث مع احد مشاهير الصوفيين فشكا اليها دنياه الفانية فلم تطق احتمالا لشكواه فأجابته « انك ياهذا تكثر ذكر الدنيا وترددها على لسانك فأنت مفتون بها ، مشغول بمحاسنها اذ ان الرجل كثيرا مايذكر ويفكر فى المتاع الذى يريد أن يستحوزه ، فلوانك قطعت كل صلة بدنياك لما ذكرت شيئا من محاسنها او مساويها . » ومن غرائب رابعة انها كانت ترد كل مايعطيها الناس (١) وتقول « مالى بالدنيا حاجة » وقد مرضت ذات يوم فلزمت فراشها ولما عادها حسن البصرى مستفسرا عنها وجد أمام بابها تاجرا يبكى فسأله متحيرا : مابك ولم تبكى ؟ فأجاب —

أحضرت كيسا من الذهب لرابعة وانى مضطرب لاأدرى اتقبله أم ترفضه فادخل بالله وانقذنى من هذا الاضطراب . فدخل حسن البصرى ونقل اليها ما كان من أمر التاجر . فأجابت : « الا تعلم ياحسن أن الله يرزق حتى عباده الذين هم عنه لاهون فما بالك بمن يكن فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر

(١) ابن خلكان

السموات عز وجل .. إنني ياحسن لم أتوجه الى غير الله منذ اليوم الذى ادركت فيه قدرته الألاهية . كيف أستطيع قبول هدية هذا التاجر وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أو من حرام (١) فحال على قبولها فاذهب اليه واشكره مع تقديم عذرى له

حادثة أخرى : زارها أحد التجار يوما ما فوجد دارها خربا يحتاج الي اصلاح وتعمير فأخبرها أنه يعطيها دارا من دوره مؤقتا فقبلت رابعة ذلك وانتقلت الي الدار الجديدة . كانت دار الرجل يحف بها أسباب النعيم والرفاهة وتزدهى جدرانها بأنواع الزينات والزخرف . ولما كان نظر رابعة لم يتعود ان يقع على أمثال هذا الزخرف فقد أطالت النظر فى الغرف الزاهية بصنوف الزينة وضروب الاشكال المبهجة ولم تتمالك أن تمتنع من هذا الامر وهى حيرى والهة وبعد ان أمعنت النظر فيما حولها وتأملت طويلا ما يحيط بها رجعت الى نفسها فخرجت من الدار توا وهى تقول:

«سوف لا اعود ثانية الى هذه الدار ولو مكثت بها اتلفت نفسى بهذه الاشياء الجميلة فيستهوينى لطفها فيحول دون ما انا صائرة اليه من الاخذ باسباب الآخرة»

---

(١) تذكرة الاولياء

(رحمة العبادة)

***

كانت تصلي الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فتنهض فزعة وتقول « يا نفس كم تنامين ! والى كم تنامين ! يوشك ان تنامي نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور » (١) وكان هذا دأبها حتى ماتت كانت رحمها الله عابدة قانتة زاهدة فانية فى الله ترى كل شىء ماخلا الله باطل . ولها كرامات تسمع هتاف الهتاف اليها فتركت كل مافى الدنيا من متاع وغرور لتصل الى طريق الذات العلية وبذلك عدت من اعيان النساء الصالحات فى العالم الاسلامي

قالت في مناجاة لها « الهي اتحرق بالنار قلبا يحبك » فسمعت هاتفا يقول « ما كنا لنفعل ذلك »

كانت لها شخصية ممتازة ولم تصل فاضلة ممن عاصرتها الى مثل ماوصلت اليه أم الخير فقد جمعت مزايا كثيرة كسبتها لقبا جديراً بالاحترام خلد لها اسما عاطراً فى صفحات التاريخ اذ كانت تدعى (تاج الرجال) سئلت ذات يوم : هل يتوب المولي عز وجل حقيقة عن عباده النادمين ؟ فأجابت ، لو أن الله لم يعط الندامة لعباده فكيف يتوبون فما دام أشعرهم بالندامة وألقي اليهم حسن التوبة فمن البديهى أن يشملهم بواسع عفوه وان يقبل توبة التائب منهم

---

(١) قاموس الاعلام

وسئلت يوماً هل تحبين الله كثيرا فقالت : بلا ريب فقيل لها : الا تعدين الشيطان عدواً لك فأجابت ان محبة الله قد ملأت ارجاء قلبي فليس فيه متسع الى القلق والاضطراب من عداوة الشيطان (١)

كان يزورها كثيرون من الناس لشهرتها وشيوع صيتها، ويتبرك بمجالسها رجال من افاضل اهل العلم ويجدون فى محاضراتها انساً عميقاً

وعندما ماتت زوجة حسن البصرى طلبها للزواج فلم تقبل وارسلت اليه قصيدتها المشهورة التي ضمنتها كثيرا من التغزل الالهي وقد سألها عقب ذلك في محادثة دارت بينهما « أليس لك رغبة فى الزواج قط ؟ » فأجابت تاج الرجال : انما يتزوج من يملك ارادته بنفسه أما أنا فليس لى ارادة . ان أنا الا عبدة المولى عز وجل « وضعت نفسى تحت ارادته وتصرفه » فقال لها الحسن البصري : كيف وصلت الى هذه الدرجة من الزهد والصلاح فأجابت أم الخير : « بمحو النفس وفنائها تمام الفناء »

قال لها أحد العلماء الأفاضل ذات يوم أثناء زيارته لها : « ان المولى فاطر السموات يارابعه يكافىء الذين يصطفيهم من عباده بموهبة من المواهب ليزداد قدرهم ولكن من الغريب أننا لم نجد مثل هذه القدرة والكفاءة فى امرأة . فكيف وصلت الى هذه المرتبة وكيف أصبت مثل هذه السعادة ؟ »

---

(١) ابن خلكان

فأجابت : « أنت محق فى ذلك لأن النساء لم يفتتنوا يوما من الايام بكفاءتهم فلم تتظاهر بدعوى القدسية »

تاريخ أم الخير مملوء بالمدهشات من الغرائب ننقل هذه الحادثه كانموذج لما سواها

كان من عادتها ان تعتزل الناس فتخلو الى ربها للدعوة والمناجاة فكانت تصوم سبعة ايام وتنقطع الى العبادة والزهد ليال لاتفتر أثناءها عن مناجاة النفس بهذا الخطاب « الى متى تعذبين نفسك يارابعة وتحملينها مشقة ليس بعدها مشقة » وهى فى ذلك وأذا برجل يدق عليها الباب وفي يده صحن من الطعام يتركه لديها ثم ينصرف . أما هى فتأخذ الصحن وتضعه فى زاوية من الغرفة وتتشاغل باصلاح القنديل وهى على ذلك الشأن فتدخل هرة فتأكل الطعام الذى فى الصحن وطالما تعود رابعه ترى الصحن خاويا فتقول رابعة فى نفسها « لا بأس أفطر على الماء » وعندما تذهب لتعود بالماء ينطفىء القنديل فلم تطق احتمالا وتقول : اللهم لم هذا العذاب ؟ فتسمع هاتفا يقول :

لوشئت يارابعة وهبناك جميع ما فى الدنيا ومحونا ما فى قلبك من نار العشق لان قلبا مشغولا بحب الله لايشغل بحب الدنيا . سمعت ذلك فعزمت على أن لا تعود فتتمنى سعادة الدنيا وراحتها بل ظلت ثلاثين عاما تذكر ربها ولا تعيد تلك الجملة أو غيرها مما

ينم عن الشكوى والألم بل كان وردها : رب لا تجعل في قلبي مكانا لغير حبك .

قال عنها الملك دينار وقد كان شغفا بها مفتونا بفضلها :

«ذهبت أزور ام الخير يوما فوجدتها على حصيرة بالية وموضع الوسادة قطعة من الآجر وتشرب من اناء مكسور فقلت لها : أعرف يا ام الخير اصحابا لي من ذوات اليسار فاسمحي لي ان اذهب اليهم واطلب منهم معونتهم في أمر رفاهيتك وراحتك فردت طلبه قائلة : ان الله رازق الاغنياء يهون على الفقراء ايضا حاجاتهم فما علينا الا الصبر والقناعة ورضاء الانسان بما قسمه الله فرض محتم .

وقد زارها ذات يوم سفيان الثورى احد الصالحين المعاصرين لها ومعه فاضل آخر يدعى عبد الواحد فوجداها نحيلة الجسم واهية القوى فلم يتمالكا نفسيهما من البكاء فقال لها سفيان الثورى قدس الله سره : هلا طلبت من الله يا أم الخير ان يخفف بعض الالم . فاجابت . من هو الذى يعذبنى ويسبب آلامى ؟ فقال هو الله . فاجابت : اذا كان هذا أمر ربى فكيف أخالفه وأطلب منه تخفيف الألم . فاجابها : لا أستطيع ان أرد عليك وها أنا ذا أكل اليك امورى بدل ان أشتغل بامرك (١) فاستمرت تقول :

---

(١) مشاهير النساء

لولم تكن ياسفيان راغبا فى الدنيا كل هذه الرغبة لـكنت انسانا كاملا . فلم يتحمل سفيان مزيداً واجهش فى البكاء وهو يقول : هل أنت راضية عنى يا ربى . فقالت له : الا تخجل فتسأل ربك ما اذا كان راضيا عنك فما الذى صنعته لتفوز برضاه فسكت.

وزارها يوما بعض أهل الفضل وسألوها لماذا تعيش منزوية ولا تتزوج فاجابت انما يشغل خاطرى ثلاثة أمور : اولاها هل أموت وأنا على ايمان كامل . والثاني هل أنال صحيفتي بيدى اليمنى يوم الحساب والامر الثالث لاأدرى مع أى فريق أكون يوم الحشر أمع الذاهبين الى الجنة أم مع الهالكين فى جهنم . فاذا كنت مشغولة اللب بامثال هذه الأمور فكيف أبحث عن الزواج

* * *

سألها سفيان الثوري أيضاً وكان من كبار المتصوفين فى عصره: كيف هو ايمانك يا رابعة وكم هو مبلغ اعتقادك بالله تعالى فأجابته تاج الرجال : « لا أعبد ربى خوفاً من ناره أو شوقاً لجنته وانما أعبده لمحض المحبة والاخلاص » ثم أخذت تناجى ربها بهذه الكلمات : (١)

« الهي احبك لوجهين : لحبي وهيامى لك ولأنك أهل للمحبة والعبادة فباشتياقى ومحبتى اذكر اسمك واشغل بذاتك

---

(١) مشاهير النساء

العلية وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة فلا يقف حمدك وثناءك لأمر منهما وانما لك الشكر ومنك الفضل للحالين »

وكان كفنها وهو عباءة من الصوف لم يزل موضوعا أمامها تستصحبه معها أينما ذهبت وعند ما اقتربت منيتها وشعرت بالوفاة طلبت «عبدة بنت ابي شوال» وقد كانت صديقة مخلصة لها فأوصتها بأن يكفنوها (١) بتلك العباءة فلما ماتت عملت بوصيتها فرأتها في المنام بعد دفنها بعام برداء اخضر وغطاء اخضر على رأسها فقالت لها متعجبة : ماذا صنعت بكفنك الصوف فاجابتها قد عوضني الله عنه بهذه الثياب كما ترين .

* * *

وكان موتها عام ١٢٥ هجريه وقبرها في رأس جبل الطور شرقي القدس يزوره الناس حتي اليوم

وان القارئ يرى من خلال ما شرحناه أنها رحمها الله شخصية غريبة ذات مزايا انفردت بها من بين ربان الخدور فى العصر الاسلامى كما كانت مثالا نادراً للتصوف والزهد والخشوع عمرت ثمانين سنة كانت فيها مثال الكمال والعمل على التدرج الروحي . ضحت دنياها لقاء أخراها . اذ كانت تستطيع أن

---

(١) ابن خلكان

تعيش مرفهة منعمة كمعاصريها ولكنها لازمت الفقر والضرورة وأنواع العذاب والمشقة لمحو كل عاطفة دنيوية من نفسها

لا يمكن الوصول الى درجة الكمال التى وصلت اليها رابعة اذ يصعب تضحية دنيانا لاجل آخرتنا فى مثل هذا العصر الذي اشتدت فيه الرغبة فى الحياة والصدوف عما سواها وانما لو اتخذنا من حياتها اليومية دستورا ننسج على منواله نزيد في تدرجنا الروحى ورقينا الكمالى .

لو أننا فهمنا أوامر النبي وتعاليمه التى جاء بها منـذ أربعة عشر عاما لعملنا للدنيا والآخرة معاً ولكننا ارتقينا نحو ذرى الكمال

الخنساء

— ٧ — الخنساء

قبل الاسلام

هى الشاعرة الجليلة ، بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ؛ ونسبها يتصل بسليم وعيلان الى قبيلة مضر الشهيرة .

كان أهلها من سكان البادية ، العائشين تحت ظلال خيامهم المنصوبة وسط المهامه والقفار ، حيث لا قانون ولا سلطان ، وحيث هم أحرار طلقاء من كل قيد وذل .

كان قومها — كشأن العرب سكان البوادى — على طباع متنافرة وخصال متضادة تجمع بين المحامد والمثالب : فبين تراهم فى ذروة الكمال من الشهامة والمروءة والأنفة والاباء وكرم النفس واذا بهم فى أدنى مراتب الفوضى والهمجية وشدة الطبع يحبون سفك الدماء ويركبون في سبيل أخذ الثار متون الشطط ويتجاوزون فى ارتكاب الشدة حدود الانسانية جعلوا القتال وخوض غمرات الحروب والطعان ديدنا لهم واشتد طلبهم للثارات حتى كانت القبائل جميعاً تطلب الثار من بعضها كالحلقة المفرغة التى لا يعرف مبدؤها ولا منتهاها . ومن أجل ذلك كنت تراهم في عداوة مستمرة وحفيظة متصلة وبغضاء تضطرم

في الاحشاء ، فيقضون أعمارهم في الغزوات والغارات يشنونها على بعضهم البعض ، يتسيطر غنيهم على فقيرهم ويتغلب قويهم على ضعيفهم ، ومن أجل ذلك انفرط عقد السعادة من بينهم وساد الشقاء في ربوعهم .

في مثل هذا الزمن من أيام الجاهلية ، وفي أظلم أدوار الوثنية ، في عهد الحروب والغزوات ، في الايام الدموية من تاريخ العرب ، تنشقت الخنساء نسيم الحياة .

كانت من أعز بيوتات العرب نسباً وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عن قبيلتها المضرية ويعدها حصن القبائل العربية وقد حدث اصحابه رضوان الله عليهم بأنه من بني العوائك احد افخاذ سليم بن عيلان بن مضر

وقد اشتهرت قبيلة الخنساء بشجاعة ابنائها وكرم طباعهم وفصاحة منطقهم واجادتهم قول الشعر . وكان لها اخوان تحبهما محبة شديدة ، هما صخر ومعاوية ، وقد كانا من أشجع العرب وأفصحهم نطقاً وأدرعهم شكلا وأصبحهم وجهاً ، فكان ابوهما عمرو يأخذهما في المواسم والمحافل ويحضر بهما مجالس العرب ويفاخر بهما الشيوخ والاقران ، متحدثاً بجمالهما ونجابتهما فتقع اقواله منهم موقع الرضى والقبول

وسميت الخنساء في بادئ الأمر (تماضر) لبياض

لونها [1] اذ كانت العرب تسمي المرأة ذات البشرة البيضاء تماضر ثم غلب عليها اسم الخنساء ، مؤنث كلمة أخنس ، صفة من الخنس اى تأخر الانف عن الوجه او انخفاض قصبته وتأتى ايضاً بمعنى الظبية فاطلقت عليها الكلمة من طريق الكناية

كانت شاعرة بفطرتها . بدأت تقول البيت والبيتين منذ الصغر اذ كانت فتاة كريمة النفس ، متينة الاخلاق ، ذات وقار وشمم ، تكرة النفاق والمداهنة

كانت فى أول عمرها من أجمل نساء عصرها ، رآها دريد ابن الصمة يوماً تهنأ بعيراً لها ثم تجردت واغتسلت وهو ينظر اليها خفية فأعجبته وقال فيها قصيدة مشهورة يصفها ويمدحها ويبوح لها بمكنون صدره [2] . وقد خطبها الى أبيها فى اليوم التالى . فأجابه أبوها :

ـ مرحبا بك يا أبا قرة انك للكريم لا يطعن فى حسبه

---

(١) زهر الآداب

(٢) ومن هذه القصيدة قوله :

حيوا تماضر واربعوا صحبي   وقفوا فان وقوفكم حسبي
ما ان رأيت ولا سمعت به   كاليوم طالى أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه   يضع الهناء مواضع النقب
أخناس قد هام الفؤاد بكم   واعتاده داء من الحب

والسيد لا يرد طلبه والفحل لا يقرع أنفه ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة

ثم دخل اليها وقال لها : «ياخنساء أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم ، دريد بن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين» ودريد يسمع قولها فقالت :

ـ يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم ؟ هامة اليوم أو غد ؟

فخرج اليه أبوها فقال :

ـ يا أبا قرة قد امتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد

فقال:

ـ قد سمعت قولكما . وانصرف يائساً حزيناً .

وقد عاود الطلب مرة أخرى وكان بعث الى معاوية ، أخيها من أبيها بحبل النسب ، فطلبها من أخيها هذا وألحف عليه في الطلب ، وقد حضر اليها أخوها وقال :

ـ تعلمين يا أختي ما بيني وبين دريد من المودة والالفة وقد طلبك مني وأرجو ان تقبليه زوجا لك فانني راغب في ذلك .

فأجابته :

ـ ما أعجب هذا الامر ألم تجد غيري لسعادة صديقك .

ـ نعم يا خنساء انني راغب في ذلك رغبة شديدة .

ـ حسناً دعني أفكر في ذلك ويحسن أن ترسل اليّ دريد فاشافهه بنفسي .

فقام الاخ مسرعا نحو صديقه وأخبره بما دار بينهما وأتم الحديث بقوله :

ـ قم اليها فانها طلبت مقابلتك .

فأصلح دريد هندامه وامتطى فرسه حتى جاء خيمتها وقد استقبلته بالمودة والبشر واكرمته وأعدت له وسادة يتكئ عليها عند جلوسه ودار بينهما حديث طويل سألته خلال كلامها عن أشياء كثيرة ثم قدمت اليه قدحا من اللبن كعادتهم . وكانت تراقبه وتتمعن في حركاته وهو يشرب اللبن ولم يفتها شيء مما أتى به حتى رسخ فى ذهنها تماماً أنه لا يصلح بعلا لها ولم تشأ ان تخبره ذلك في الحال بل قالت له :

ـ اذهب وسيأتيك قولى فيما بعد

فعلم دريد أنه لا مجال للمزيد فقام من فوره ووصله عقب ذلك رسول الخنساء يحمل اليه هذه الرسالة :

ـ أنت شيخ طاعن قد ضعف بصرك ووهت قواك ومضت أيام شبابك فمالى اليك من حاجة .

فحنق دريد لذلك وأراد أخوها معاوية أن يزوجها منه قسراً ولكنها أصرت فى الرد وأنه لاسبيل الى ما يريد فاشتد حنق

دريد بعد هذا الرد القاطع وبدأ يهجوها بلاذع القول وقارص الكلام وعند ما بلغها ذلك قالت :

ـ مادمت رفضت الزواج منه فلم يبق ما أقوله له فليهجني ماشاء أن يهجو وما كنت لاجمع عليه أن أرده وأن أهجوه

فى هذا الرد مايشعر بالاحتقار والامتهان وانه لأبلغ من كل هجو قاله دريد فهل بلغه ذلك؟ لو سمع قولها لاستشاط غضباً فوق غضبه

وبعد هذه الحادثة تزوجت برواحة بن عبدالعزيز السلمى [1]

وبعد أن مات خلف عليها عبد الله بن عبد العزى من بنى خفاف فولدت له عبدالله ثم خلف عليها من بعده مرداس بن أبى عامر السلمى فولدت العباس ويزيد وحزن وعمر وسراقة وعمرو. وجميعهم شعراء وقد امتاز العباس من بينهم بالشجاعة واجادة الشعر وأدرك الاسلام وتشرف به ثم مات فى موقعة القادسية مع ثلاثة اخوة له بعد أن أبلوا بلاء حسناً

وكما كانت تحب أولادها فقد أحبت أخويها معاوية وصخر بل أن حبها لهما كان يفوق كل حب واعزاز وقد كانت تفضل صخراً حق قدره لحلمه وشجاعته، وتخصه بالاجلال لموقعه الممتاز بين رجال العشيرة وافراد العائلة ، وتفخر به لبطولته وفروسيته وتعتز به لصباحة وجهه ولذلك فان قصائدها التي قالتها فيه أثناء

(١) الاغانى

حياته ومراثيها التى أنشدتها لأجله بعد مماته من أجود الشعر وأمتنه

موت أخيها معاوية أول نكبة أصابت كيان حياتها ولقد زلزلت هذه الحادثة بنيان نفسها وذهنها فغيرت مجرى حياتها الى طريق آخر غير سنتها الأولى .

أظلمت الدنيا فى وجهها فانقلبت قصائدها المملوءة بالروح والحياة الى مرثيات مبكية موجعة تسيل حزنا وألما . فهذه الحادثة هى الفصل الاول من كتاب حياتها ، فيه ودعت والهة متوجعة ، أيام الشباب وأناشيد الصبا ونغمات السرور . ففى عام ٦١٢ من ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام وافى معاوية سوق عكاظ[١] فى موسم من مواسم العرب فبيناهو يمشى في السوق إذ لقي أسماء المرية وكانت جميلة وزعم انها كانت بغيا فدعاها الى نفسه فامتنعت عليه وقالت

ـ أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟

فأحفظته ، فقال :

ـ أما والله لاقارعنه عنك .

قالت :

ـ شانك وشأنه

فرجعت الى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له

---

(١) العقد الفريد

فقال هاشم

ـ فلعمري لانريم أبياتنا حتى ننظر مايكون من جهده

فلما خرج الشهر الحرام وتواجع الناس عن عكاظ ، خرج معاوية بن عمرو غازيا يريد بني مرة وبني فزارة في فرسان أصحابه من بني سليم حتى اذا كان بمكان يدعي الحوزة دومت عليه طير وسنح له ظبي فتطير منهما ورجع في أصحابه وبلغ ذلك هاشم بن حرمله فقال

ـ مامنعه من الاقدام الا الجبن

فلما كانت السنة المقبلة غزاهم حتى اذا كان في ذلك المكان سنح له ظبي وغراب فتطير فرجع ومضى أصحابه وتخلف في تسعة عشر فارسا منهم لا يريدون قتالا فوردوا ماء واذا عليه بيت شعر فصاحوا بأهله فخرجت اليهم امرأة فقالوا ممن أنت ؟ قالت

ـ امرأة من جهينة أحلاف لبني سهم بن مرة بن غطفان .

فوردوا الماء يسقون فانسلت فأتت هاشم بن حرملة فأخبرته أنهم غير بعيد وعرفته عدتهم وقالت

ـ لاأرى الامعاوية في القوم .

فقال :

ـ يالكاع أمعاوية في تسعة عشر رجلا شبهت وأبطلت

قالت :

ـ بلى ، قلت الحق وان شئت لاصفنهم لك رجلا رجلا .

قال : هاتي .

قالت :

ـ رأيت فيهم شابا عظيم الجمة جبهته قد خرجت من تحت مغفره ، صبيح الوجه ، عظيم البطن ، على فرس غراء

قال :

— نعم هذه صفته وفرسه الشماء

قالت:

— ورأيت رجلا شديد الأدمة ، شاعراً ينشدهم

قال :

— ذاك خفاف بن عمير

وهكذا حتى وصفتهم رجلا رجلا الى أن أتت على وصف الجميع فنادى هاشم فى قومه وخرج فاقتتلوا ساعة وانفرد هاشم ودريد ابنا حرملة المريان ، لمعاوية فاستطرد له أحدهما فشد عليه معاوية وشغله واغتره الأخر فطعنه فقتله

ولما دخل الشهر الحرام خرج صخر بن عمرو حتي أتى بنى مرة فوقف على ابن حرملة فاذا أحدهما به طعنة فى عضده فقال :أيكما قتل أخى معاوية ؟ فسكتا فلم يخبراه شيئا فقال الصحيح للجريح :

— مالك لاتجيبه .

فقال:

— وقفت له فطعنني هذه الطعنة فى عضدي وشد أخى عليه فقتله فأينا قتلت أدركت ثأرك الا أنا لم نسلب أخاك قال :

— فما فعلت فرسه الشماء ؟ قال :

— ها هى تلك خذها

فأخذها ورجع فلما أتى صخر قومه قالوا له : أهجهم . قال :

— انما بيننا أجل من القذع ولو لم أكفف نفسى رغبة عن الخناء لفعلت .

فلما كان فى العام المقبل غزاهم وهو على فرسه الشماء وقال انى أخاف أن يعرفوني ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا فحمم غرتها فلما أشرفت على أدنى الحى رأوها فقالت فتاة منهم هذه والله الشماء فنظروا فقالوا الشماء غراء وهذه بهيم فلم يشعروا الا والخيل دوائس فاقتتلوا فقتل صخر دريداً وأصاب بنى مرة وعاد ظافراً غانما يطفح وجهه بشرا بأخذ الثأر (١)

* * *

وفى الوقت الذى وهبت الخنساء نفسها لمحبة أخيها صخر بعد مقتل عزيزها معاوية ، أصيب أخوها هذا بطعنة رمح بعد

---

(١) الاغانى

ثلاثة أعوام ومرض قريباً من حول .

كان لصخر زوجة تدعى سلمى يحبها لدرجة العبادة ويقال أن بنى عبس غزت قبيلته فى يوم من أيام خروجه للصيد فانهكت حرمة الخيام وسبت نساء الحي وعند ما عاد صخر وجد الخراب ضاربا أطنابه في موطن الحى فركب فرسه وهاجم القبيلة الغازية مسرعا وتمكن من قتل بضعة رجال منها ثم التفت اليه فرسان من أشجعهم فقاتلهم حتى انتصر عليهم ولما رأى أسراء بنى سليم هذا الظفر الخارق تجرأوا وبدأوا يفكون القيود والاغلال ويهرعون مثنى وثلاث الى حيث صخر ليمدونه بالمعونة فى ميدان النضال وقد رأى ابنة عمه سلمي ذايلة بين زنجى من القبيلة يمتهنها فهجم عليه وقتله في الحال . وعند ما انتهت المعركة وعقدت لصخر ألوية الفخار والظفر عينه رجال القبيلة رئيسا عليهم مكافأة لابلائه الحسن وطلب منه عمه أن يختار من يشاء من بناته زوجة له فاختار سلمى اذ كان مغرما بها

كانت سلمى أجمل بنات الحى وأملحهن شكلا وقد كان لها مكانة سامية في نفس صخر منذ أمد بعيد فكان زواج هذين العاشقين : أجمل الفتيات وأشجع الفتيان من دواعي الطرب والسرور بين القوم

أصيب صخر بعد زواجه بطعنة رمح أقعدته الفراش مدة

طويلة وكان أفراد القبيلة يفدون الى خيمته يسألون زوجته عن رئيسهم المحبوب من حين لآخر وكانت سلمي تجلس أمام خيمتها تنتظر ابلال زوجها من مرضه . انتظرت طويلا ولكن على غير جدوى فبدأت عوامل الملل تتسرب الى نفسها وأخذت آثارها تظهر على صفحة وجهها بما تظهره من التبرم والتأفف وقد سألها بعض قومها ذات يوم : « كيف بعلك ؟ » فقالت سلمي :

ـ لاحي فيرجى ولا ميت فينعى لقينا منه الامرين .

فسمعها صخر وتأثر من ذلك أيما تأثر [1]

ما كان يخطر على باله أن تقول سلمي فيه مثل هذا القول ؛ سلمى التي أحبها وخاطر من أجلها وخاض غمرات الموت لانقاذها من يد الزنجي فاشتد ألم النفس شدة أنسته ألم الجرح ومافتىء يكرر قولها للعائد حتي ناداها ذات يوم وقال :

---

(١) وفى ذلك يقول :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى ... وملت سليمي مضجعى ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغتر بالحدثان

لعمرى لقد نبهت من كان نائما ... وأسمعت من كانت له اذنان

وللموت خير من حياة كأنها ... محلة يعسوب برأس سنان

وأى امرىء ساوى بأم حليلة ... فلا عاش الا فى شقا وهوان

ـ قد قلت ياسلمى فى حتى كذا وقد نذرت لاجلك نذراً ان شفانى الله .

فسألته :

ـ أخير هو هذا النذر أم شر ؟

فأجابها :

— جزاء لخيرك وشرك .

فأجابته :

— والله قد يئست من نفسى ولا أقدم لك عذرا عما قلته فافعل بى ما أنت فاعل .

فأثر عليه قولها كأنه سهام مسمومة نفذت أحشاء قلبه وبدأت أمه تجلس بعد ذلك اليوم تقابل الزائرين والعائدين فكان اذا سألها سائل عن صحته طمأنته وقالت له مايتفاءل به خيرا .

وقد بدأ جرح صخر يلتئم وأخذ يسترد صحته ويعود الى نشاطه السابق ، حتى اذا أنس من نفسه بعض القوة ، قام الى زوجه فهجم عليها وصلبها على احدى أعمدة الخيمة . الا أن المجهود الذى بذله في سبيل الانتقام من زوجته أفقده الصحة فانتكس ثانيا الى أن مات .

لم تنس الخنساء مصيبتها الثانية ومرارة هذه الحادثة حتى الممات فبكت طول حياتها ونظمت المراثى الطوال

الخنساء

بعد الاسلام

بعد أن ثكلت الخنساء أخويها جاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفود قبيلتها وتشرفت بنعمة الاسلام

ولم تنقطع عن أوجاعها وأناتها حتى بعد الاسلام . بل كانت تقص شعرها وتلبس ثوبا خلقا من الخيش الاسود وتندب أخويها على عادة العرب فى جاهليتها

رآها سيدنا عمر بن الخطاب ذات يوم أثناء طوافها بالكعبة وهى على هذه الحال فتقدم اليها ونصحها كثيرا فأجابته ـ لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به فكيف أتحمل مضض فراق فارسين فقدتهما .

فأجابها سيدنا عمر بما هون عليها المصيبة وذكرلها أن مصائب كثير من الناس أشد هولا لو اطلعت على بواطن أمرهم وقال لها أن ماهى عليه من الحداد من بدع الجاهلية التى حرمها الاسلام فامتثلت لأمره

ورأت السيدة عائشة على الخنساء صداراً من شعر وهو ثوب صغير فقالت ياخنساء أتلبسين الصدار وقد نهى الرسول عنه قالت لم أعلم بنهيه وله سبب قالت : وما هو ؟ قالت زوجني أبي رجلا متلافاً لماله فأسرع فيه حتى نفد فقال لى أين تذهبين ياخنساء فقلت الى أخي صخر فلقيناه فقسم ماله بيننا شطرين ثم خيرنا فقالت زوجته أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخيرهم فقال

والله ما أمنحها شرارها

وهي حصان قد كفتني عارها

ولو أموت مزقت خمارها

وجعلت من شعر صدارها

ثم أنشدت قصيدتها التى تقول فيها

يذكرني طلوع الشمس صخراً

وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى

على موتاهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخي ولكن

أعزى النفس عنه بالتأسى

لم تستطع الخنساء أن تمحو من ذاكرة الخيال مرارة الحزن وألم الفراق بل ذهبت أيام عمرها مع سيل عبراتها واستنزفت دموع

القلب زهرة حياتها . لم تصغ الى نصيحة انسان بل أن الحزن انطبع على قلبها بحروف من نار وكوي فؤادها كيًا لا يزول أثره مادام فيها عرق ينبض . لو ابتسمت لخلت الحزن مرتسما فى تلك الابتسامة ولو تنفست لشعرت بحرارة الالم تتصاعد مع الزفرات . لم يحلق فى سماء حياتها سوى غمامة كثيفة دهي : شبح الذين ثكلتهم وبكت من أجلهم

وفى أيام خلافة سيدنا عمر جاء اليه نفر من أصحابها وشكوا اليه حالها وطلبوا منه احضارها وبذل النصيحة لها عسى أن ترجع عن حدادها فلما مثلت بين يدى رجل العدل عمر وجد عينيها غائرتين من كثرة البكاء فقال لها :

— مادهاك ياخنساء ؟ وما الذي صيرك الى هذا الحال ؟

فاجابت :

بكائى لفحول مضر جعلنى فى هذا الحال . فأنبها عمر وطلب منها أن تلتجىء الى رحمة المولى عز وجل وقال لها ان الاسلام يحرم أمثال ذلك وأننا ظلال زائلة في هذه الحياة ولو أن البقاء من نصيب الاحياء لبقى الرسول صلى الله عليه وسلم حيا ثم أتم الحديث بقوله (ان اخويك فى النار) فأجابت

— ذاك أطول لحزني كنت أبكى لهما من الثار وأنا اليوم أبكى لهما من النار .

فطلب منها أن تقول ذلك شعرا فقالت دعنى أنشدك بعض ما قلته فيهما ثم أنشدته قصيدتها التى مطلعها :

سقى جدثا أكناف غمرة دونه　　من الغيث ديمات الربيع ووابله

فتأثر سيدنا عمر من قولها وعزم على أن يتركها فى حالها ثم التفت الى اصحابه وقال لهم :

ـ دعوها بعد اليوم فى شأنها فان للمرء أن يبكى ما شاء لمصيبته ونكبته .

حرب القادسية

هنالك صفحة مشرقة في تاريخ أيام الخنساء ، تنحني لها الرؤس اجلالا ، هي خير وأبقى من كل قولة قالتها أو قصيدة نظمتها فى أيام الصبا .

فلقد خبا بريق عينيها وانطفأ نور جمالها وتقوس ظهرها وانتابتها عوامل الضعف والشيخوخة ولكنها لم تزل فتية القلب ، جريئة الجنان ، تجول فى عروقها المنكمشة دماء الشهامة والجلادة .

عرفنا الشيء الكثير عن تاريخ المرأة الرومانية وأعجبنا بجلادتها وشجاعتها فى مواقف الشهامة وما كانت عليه الخنساء لم يكن بأقل من ذلك

لقد بلغت أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر وقوة الايمان . ما ذهب به الدهر من حديث جزعها ، وتصدع قلبها واضطرام حشاها على أخويها صخر ومعاوية ، كل ذلك استحال الى صبر أساغه ايمان الاسلام وجمله التقى فلم تأس على فائت من متاع الدنيا .

كانت أما الاربعة أولاد من أشجع الاولاد ، هم أشطار كبدها

ونياط قلبها دفعتهم جميعاً الى الحرب وعدت موتهم فى سبيل الاسلام شرفاً ليس وراءه شرف . ثم بكتهم وهى تفخر بضياعهم إذ لم يبق لها انسان بعدهم

وقعت حرب القادسية فى عام أربعة عشرة من الهجرة النبوية فحضرت الحرب مع أولادها الاربعة وقالت لهم من أول الليل :

« يا بنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم لبنو رجل واحد ، ماخنت أباكم ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وارابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا أصبحتم غداً ان شاء الله سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى مساقها فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رسيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة . »

فلما أصبح الصباح وقد أثرت فيهم نصيحتها تقدم كل واحد منهم الى الحرب وقاتلوا واحداً بعد واحد حتى قتلوا وكل

منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزاً فأنشد الاول :

يا اخوتي ان العجوز الناصحة قد نصحتنا اذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة وانما تلقون عند الصابحة
من آل ساسان كلاباً نابحة

***

وأنشد الثاني :

والله لا نعصى العجوز حرفاً نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً
فبادروا الحرب الضروس زحفاً حتى تلفوا آل كسرى لفاً

***

وأنشد الثالث :

ان العجوز ذاتٍ حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبراً بالولد فباكروا الحرب حماة في العدد

***

وأنشد الرابع :

لست لخنساء ولا للأخزم ولا لعمرو ذي السناء الاقدم
ان لم أرِه في الجيش جيش الاعجمي ماض على الهول خضم حضرمي

اشتد أوار الحرب وانتهت بقتل كبير الفرس وتشتت شملهم وانتصار المؤمنين فعقدت للاسلام ألوية الظفر

وعند نهاية الحرب الضروس التى لقي منها المسلمون صنوف

الشدة قام نفر من رجال الجيش الى الخنساء وأخبروها باستشهاد أولادها الاربعة بعد ان أبلوا بلاء حسناً وما كادوا يلقون عليها الخبر حتي اهتز كيانها ونالتها رعشة سرت في جميع أطرافها ثم سكتت والتفتت اليهم تقول :

« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى ان يجمعنى معهم فى مستقر رحمته »

وعند ماعادت الجيوش الاسلامية الىالمدينة المنورة تخفق على رؤس أفرادها ألوية الظفر كانت الخنساء معهم تجر نفسها على عصاها،تسيل عبراتها ويتخلل وجهها اشراقا وبهاءفكان الناظر اليها لا يدرى أيغبطها على حالها أم يتوجع لآلامها وقد أجرى عليها رجل العدل عمر بن الخطاب أرزاق بنيها ، مائتي درهمعن كل واحد .

مكانة الخنساء بين شعراء العرب

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه شعرها [١] ويستنشدها ويقول هيه ياخناس ويومى بيده صلى الله عليه وسلم.

ولما قدم عدى بن هاشم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحادثه فقال :

— يارسول الله ان فينا أشعر الناس وأسخى الناس وأفرس الناس.

قال : سمهم . قال :

— أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد يعنى أباه وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب فقال رسول الله عليه وسلم.

ليس كما قلت ياعدى . أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو وأما أسخى الناس فمحمد يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب .

قيل لجرير من أشعر الناس ؟

قال : أنا لولا الخنساء

قيل : بم فضلتك ؟

---

(١) خزانة الادب

قال : بقولها :

ان الزمان وما يفني له عجب أبقى لنا ذنباواستؤصل الراس

ان الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكانت فى أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر فأكثرت من الشعر و تغيرت طريقتها فى القول وأسلوبها فى التفكير لان المصيبة شحذت قريحتها وصقلت ذهنها فاشتد لمعان أفكاها رونقاً وبهاء

واتفق أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها ويقول الشريشى في كتابه: « ان النساء ليظهر الضعف فى أشعارهن الا الخنساء فقد فاقت الرجال فى قول الشعر » وعندما عد ابو العباس المبرد شعراء العرب قال عن الخنساء وليلى انهما فاقا الرجال في متانة الشعر مع تأخر النساء بالنسبة للرجال فى أكثر الصناعات وكان الاصمعي يفضل ليلى على الخنساء ويحاجيه ابو زيد بقوله « وان كانت ليلى فى اشعارها أمتن لفظاً وأعمق معنى الا أن الخنساء فى مراثيها أعلى روحا» وكان المبرد تعجبه مراثى الخنساء ويقول عنها « أمتن المراثى ماكانت مملوءة بالالفاظ المفجعة التى تشعر بمدح المتوفى فاذا كان النظم موافقا والالفاظ صحيحة والاسلوب رائقا فلا ريب في نفاسة القول اذ ذاك حيث يستفيد المرء ويمتلىء بروح اللذة والاعجاب وهكذا مراثى الخنساء

فى مثل هذا الحد من مراتب الكمال »

كان يضرب للنابغة الذبيانى قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فأنشده الأعشى مرة ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء والخنساء تسمع

فسأله حسان عن مقدار شعره ففضل عليه الأعشى فقام حسان غاضباً يقول :

« والله لأنا أشعر منك ومن أبيك »

فقال له النابغة :

« يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول »

ثم التفت الى الخنساء وطلب منها أن تنشده شيئاً فأنشدته :

ان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فتأثر الحاضرون وقام اليها حسان يقول :

« لم أر والله امرأة أشعر منك فقالت له :

ألا تريد أن تقول انى أشعر الرجال أيضاً ؟

فأجابها بغرور

« كلا أنا أشعر منك ألم تسمعى قولى :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فنظرت اليه الخنساء بازدراء وأجابت :

— انك لعاجز فى هذا الشعر وقد أخطأت فى ثمانيـة مواضع منه

فسألها عن مواضع الخطأ فأجابته برزانة ووقار :

قلت (الجفنات) والجفنات جمع قلة وكان الاجدر أن تقول (الجفان) وقلت (الغر) ولا يقال الغر الا لبياض الجبهـة ولو أنك قلت (البيض) لكان المعـنى أتم وانك تقول (يلمعن) واللمعان يفيـد النور الضعيف وكان الاجـدر بك أن تقول (يشرقن) وقلت (بالضحى) مع أن وقت الضحوة لا يأتى من الضيوف الا النذر اليسير ولو قلت مساء لكان المعنى أتم وقلت (أسياف) بجمع القـلة ولو أنك قلت سيوف لكان دليـلا على الـكثرة وقلت (يقطرن) فدللت بذلك على قلة عدد القتلى ولو قلت (يجرين) لكان أبلغ ثم انك تقول (دماً) ولو قلت (دماء) لكان أتم ثم انك تفتخر بالاخلاف منكم ولا تفتخر بمن سلف .

فخجـل حسـان من محاجتها وخرج من المجلس غاضـباً كئيباً .

كان من عادة العرب أن يجتمع شعراؤها فى سوق عكاظ للمباراة فى اجادة الاقوال وسبك المعانى وكان ينصب للنـابغة الذبيانى قبة حمراء يجتمع تحتها كل شاعر مجيد وكل بليـغ عتيد

وخطبب منطيق فيطلقون العنان لبنات الافكار وينثرون على بساط المباراة درر الالفاظ وغوالى الحكم فن نال قصب السبق وحكم له بالتفوق والاجادة تكتب قصيدته على طروس من الحرير تعلق على أستار الكعبة ومن أجل ذلك فان لأصحاب المعلقات مكانة رفيعة ومنزلة سامية بين الشعراء وفحول أصحاب القول والحكمة. لأن معلقاتهم من أجود القول وأحكمه

كانت العرب تعبد البلاغة فأوصلتهم عبادتها الى مراتب الكمال فى التوسع اللغوى حتى لقد أصبح قول الشعر سليقة لهم ينطق بها صغيرهم وكبيرهم وأصبحت الكلمة الطيبة تعمل فى النفوس فعل السحر بالالباب .

كانت المعاني الجميلة والالفاظ البديعة والاقوال الحكيمة من مزايا تلك الحياة البدوية الصافية، حتى ليقال أن أعرابياً وصل ذات يوم الى مكة المكرمة فحث مطيته نحو رهط من الناس مجتمعين في حلقة، مطرقين ينصتون لرجل يقرأ عليهم قولا بليغاً فنزل عن ناقته وجلس ينصت معهم وما كادت بعض الاقوال تتغلغل الي نفسه حتى قام من فوره فسجد سجدة طويلة وعندما انتهره القوم متسائلين عن فعلته أجابهم : « انما سجدت لفصاحة هذا الشيء الذي تقرأونه » فقالوا له « ماهذا كلام بشر وانما هوكلام الله عز وجل » فأجاب « اذن لاسلمن معكم »

كانت الخنساء تحضر سوق عكاظ وتعرض شعرها النفيس في ميدان المباراة تحت تلك القبة الحمراء وقد قرأت ذات يوم قصيدة بليغة نالت استحسان الجميع واعجابهم فأشار النابغة الى الاعشى الواقف أمامها وقال :

«لولا ان أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر منه»

فهذه الخنساء عرفناها شاعرة جليلة من شعراء الطبقة الاولى المشهورين بالاجادة والتفوق ولها ديوان جليل .

* * *

ها نحن أجملنا لك صحيفة بيضاء من تاريخ العظائم ، صحيفة امرأة مستثناة ، أحرزت في الحياة موقعاً رفيعاً يختلف كثيراً عن مواقع من عاصرتها من سيدات ورجال .

الخنساء سيدة جليلة ، ووالدة كريمة ، وشاعرة عزيزة ، نافست في عالم الادب فنالت قصب السبق وناضلت في ميادين القتال لاعلاء كلمة الاسلام فحازت القدح المعلى ولا ندري بأي مزية من هذه المزايا نذكرها ولا بأي مفخرة من هذه المفاخر نشهرها .

عاشت اعواما كثيرة بعد وقعة القادسية وماتت ايام خلافة معاوية في العام الخمسين من الهجرة وعمرها سبعون سنة . وقد أجمعت كتب التاريخ انها ماتت في البادية .

كيف قضت أنفاسها الاخيرة وأودعت آخر نسمة من نسمات الحياة ، أكانت وقتئذ عائدة من احدى منتديات الشعر والادب تتوكأ على عصاها المعروفة ؟ ام أسلمت الحياة فى خيمتها وهي مستسلمة الى احضان الماضى وذكريات الشباب أم كانت اذ ذاك تحدد النظر فى منظر غروب الشمس فى يوم قائظ وقد خيل اليها ان تشبع الروح وتملأ العين بتلك النظرة الاخيرة فى فضاء الصحراء المترامية الاطراف والبوادى الشاسعة التى لاتقع العين منها الا على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وهى تردد مع انفاسها الاخيرة قولها فى أخيها :

يذكرني طلوع الشمس صخر ... وأذكره لكل طلوع شمس

ساءات التاريخ كثيراً عن ذلك فلم أقع من طياته واسرار على ما ينقع الغليل اللهم الا نتف واقوال اجملتها فى هذه الصحائف القليلة التى اعرضها اليوم على الانظار بعد مرور الف وثلثمائة وثمانية عشر ربيعا على ذبول تلك الزهرة المعنوية الجليلة

وقد خطرت لى سانحة أريد ان اثبتها هنا قبل ختم هذه الصحائف . هى ذكرى صغيرة أريد بها المقارنة بين قلب الخنساء الكبير ونفسية امرأة يابانية :

اننا نعلم الخطوات الواسعة التى خطتها الامة اليابانية في سبيل الرقى والمدنية فان نعجب بمدنيتهم وفلاحهم فان عصبيتهم

نحو تاريخهم وقوميتهم وتمسكهم بتقاليدهم المليه وعاداتهم الوطنية أحرى بالتقدير وأجدر بالاعظام

ان تحليل وتعميق الشعور الكامن فى النفس اليابانية للوصول الى حالتها الروحية وللوقوف على أسرار سعادتها والاطلاع على غايتها من الحياة والاحاطة بالعوامل التى رفعتها الى هذه الرتبة العالية والمكانة السامية ، لذة معنوية تدخل على النفس ظلال الغبطة والسرور .

أسعدتنى الظروف فيما مضى بلذة معنوية من هذا القبيل ، اذ كنت أطالع كتابا عن اليابان يبحث عن علو أفكار المرأة اليابانية وظرفها الفطرى وقد ذكر فيها المؤلف بدهشة واعجاب متانة اخلاقها وقوة جنانها وعلو طبعها الى غير ذلك من مزايا تربيتها الروحية ثم استطرد من ذلك متسائلا عن أثر الوراثة فى ذلك التهذيب وعن الاجيال التى تمت وتمرنت فيها هذه التربية الروحية حتى كملت الى حد اظهار الرزانة والوقار أمام مرائر الحياة وجبر النفس وستر دموع العين بابتسامات لطيفة في أوقات الضنك والشدة ثم استطرد من ذلك الى تصوير الحرب الروسية اليابانية وتحدث عن اليابانيات وثبات جأشهن وهن يودعن ازواجهن وأولادهن وآباءهن واخوانهن الذاهبين الى ميادين الحروب وكيف انهن كن يملكن العبرات فى ذلك الموقف الرهيب وتفتر

ثناياهن بالابتسامات المشجعة والكلمات المعزية والمعانى الحماسية بدل ان يذرفن الدموع التي قد تفت فى السواعد وتثبط من العزائم وتقلل من النشاط وقد كانت الواحدة منهن لتعلم وهى تودع أعز انسان لديها انه قد لا يرجع اليها سالماً وقد لا تحظى بقبلاته فيما بعد ،ولكنها لا تفتأ عن بذل ما تبعث فيه الحمية وما تجدد فيه العزيمة للكفاح وملاقاة الاهوال وقد أضاف المؤلف ان هؤلاء النسوة ما كانت احداهن لتتأخر عن سبيل التضحية لحظة واحدة فداء الوطن والامبراطور ولو أن التقاليد او العادات تبيح لهن الاشتراك في المعامع والحروب مع الرجال، انهن ليخضن غمراتها بشوق وتلهف بلا بطء ولا توان .

وبعد أن ذكر المؤلف الشيء الكثير عن شهامة اليابانية سرد هذه الحادثة التى شاهدها بنفسه رأى العين والتى لا أرى مندوحة من نقلها هنا كما هى انها اقصة بالغة ذات مغزى سام تسوق المرء الى التفكير العميق وقد أستطيع هنا أن أسوق القاريء الى وادى الحس وأفيض عليه بشيء من الشعور لذى غمرنى عند تلاوتها ، قال المؤلف :

«كان ذلك فى أوائل الحرب الروسية اليابانية وكانت الجيوش تساق الى ميادين المعارك ففى هذه الآونة كانت يابانية تودع حبيبا لها ، ذاهبا الى الحرب فرأيته يقول لها : هيا بنا نتصافح

فانى ذاهب » فسألته متعجبة الى أين ؟ — الى الحرب فأشرق جبينها وارتسمت على وجهها ظلال الغبطة والشوق وسألته بنغمة كلها سرور ونشاط :

— الى الحرب ! أليس كذلك ؟ الى أعدائنا الروس ؟

— نعم الى أعدائنا الروس .

فقامت اليابانية من فورها وقد كانت جالسة على حصير، تبرق عيناها بنيران الشوق والسرور وما كاد حبيبها يلمح فى نظراتها ذلك الهيجان حتى سألها .

— أكنت رغبين فى مرافقتي؟

فأجابته وهى تكاد لا تملك خفايا تأثراتها :

— نعم كنت أريد ذلك ،أريد أن أموت، أن أجود بحياتى في ميدان الحرب . ولو أستطيع أن أموت وأحيا سبع مرات لجدت بحياتى فى كل هذه المرات فداء الوطن والامبرطور »

لقد تسنمت اليابان غارب المدنية وارتقت ذروة المجد والفلاح لانها تملك مثل هذه النفوس المهذبة والشخصية الكاملة وبمثل هذه النار المقدسة المشتعلة في نفس المرأة اليابانيه على الدوام غرسوا بذور محبة الوطن والامبراطور فى قلوب الاولاد والاحفاد جيلا بعد جيل .

الوطنية شعور عام يسود اليوم قلب كل ياباني

البطولة والتضحيه من المعانى الممتزجه بدم اليابانى ولحمه. انهما جزءان لا يتجزءان من كيانه

هذه هي المرأة اليابانية . . . .

وعلى هذا المنوال نسجت أمهاتنا أمثال الخنساء في تشجيع اولادهن للحروب وتزكية نيران الحماسة فى قلوبهم وبمثل هذه الروح العالية كانت الواحدة منهن تنادى في أولادها وتصيح : « حافظ على لوائك يا بنى وحذار من أن يقع فى يد عدوك انما اللواء شرفك ووطنك ودينك فاذا أصابته نقطة من الغبار قل شأنك وشرفك . واذا نالته خدشة أو خمشة صغيرة فى جانب من جوانبه صغر قدر نفسك نه كيانك وكتاب مجدك ورمز أمانيك . لج غمرات الحرب وانظر دوما الى الامام واعلم أن الجبن عصيان للوطن فلا ترض لنفسك أهون الحالين بل اسع فى أن تكون إما غازيا أو شهيدا »

وعند ما كانت نساؤنا تدفع أحفادها وفلذات اكبادها الى غمرات الحروب بأمثال هذه الحماسات كنا نقفز على الدوام نحو الرقى والفلاح . لقد ارتفعت اذ ذاك رؤسنا وأشهدنا العالم مجدنا وكياننا وبرهنا لهم أننا نستحق الحياة بجدارة واستحقاق.

ولقد جرت الايام ذيول العفاء على تلك الازمان المجيدة والايام العزيزة وتطاولت الاحقاب والاجيال على وقت كنا

نقدر فيه ذواتنا . ولقد نسينا شخصيتناوامحت القومية من صدورنا أومنذ ذلك اليوم صرنا مهجورين مدحورين ثم قمنا نقلد غيرنا ونحاكي سوانا فما استطعنا الى ذلك سبيلا وعندما عدنا القهقرى أصبحنا نشك في شخصيتنا لا ننا فقدناها ومثلنا اليوم في اوقيانوس المدنية وخضم العمران مثل سفينة فقدت دفتها تشق عباب البحر بلا غاية ولا أمل فطوراً الى اليسار وطوراً الى اليمين ،الى حيث يخيل اليها أنه شاطيء السلامة والنجاة . . . .

ولكن لا شيء يستعصى في الحياة أمام العزيمة والثبات علينا الا نيأس وان نحيا بالامل وأن نعتقد بأن حسن الطالع سيكون يوما معنا وأن نعمل منذ اليوم بما أوتينا من جهد وجلد وقوة على اكتساب ثقة الايام وانتهاز فرص الزمان. علينا أن نكرر من حين لآخر كلمات الخنساء الذهبية لأولادها وهم ذاهبون الى المعركة.ولنخلص في القول حتى نعمل على وقاية اسمنا وشرفنا والمحافظة على لوائنا لتكن اجسادنا ذرات منفصلة من وطننا ولتكن قلوبنا قلعة منيعة محصنة بأسوار الايمان أما لواؤنا الاخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث فليخفق على الدوام فوق برج هذا الحصن المنيع بالنسمات التي تحركها أبواق الظفر .

— ٨ —

اميرة المؤمنين زبيدة

بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور

الفصل الاول

كما أن شيب الرؤس والعوارض ، من علامات الشيخوخة للافراد ومن أدلة أقترابها نحو حلقات الضعف والذبول ، كذلك انغماس الامم فى مماشى الرفاهة ومسالك السفاهات ، من أمارات انحطاطها ودنو ساعتها والسر فى ذلك ، أن عناية الخلق بضروب الزينة ، واعراضهم عن الجوهر ، وتمسكهم بأهداب العرض ، واكثارهم من التهافت على الكماليات ، يسوقهم حتما الى هجر أوضاعهم القديمة وأنظمتهم التى درجوا عليها وتقاليدهم التى نشأوا معها ، فيشرعون في توسيع شأنهم وترفيه حالهم ، فتبدأ عامتهم فى مشاركة الملوك والخواص في مظاهر لباسها ومعاشها ، ويصبح حب الراحة من قواعد العرف وأحكام العادة . ويهجر قواد الحروب مضارب الخيام وظهور الخيول الى التنعم فى مغانى الانس والتلهى تحت ظلال الامن والدعة ، فيختل النظام وتسرى الفوضى ويسود الفشل وتضعف تبعاً لذلك الانظمة المقننة لسياج الملك وصيانته ، الى أن يأتى دور الانحلال فالاضمحلال وتتم كلمة القضاء المسطرة فى لوح الازل

حقاً ان الامم انما تسير حسب الحكمة الصمدانية المرسومة لها فى كتاب قدرها وأن « لكل أجل كتاب » ولكن لايجب أن نستسلم من جراء ذلك ونركن الاقدار تسيرنا ذات اليمين وذات اليسار . وانما علينا أن نمتلىء بالامل ، ونعمل بجد على اصلاح الحال والمآل ، اذ من الثابت المقرر أن من القضاء ماهو معلق كما هو وارد فى الكتاب العزيز « ويمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١)

ما أجل هذه الفلسفة وأروعها ! اننا لنسجلها هنا بيد الاعجاب والتقدير لذلك الفيلسوف الداهي والمؤرخ الكبير العلامة الحاج خليفة المعروف فى عالمي الادب والعرفان باسم كاتب شلبي ذلك لانها القانون الازلى لوقائع الايام والناموس الخالد لحوادث الزمان هذا الناموس الخالد لهو — في عرفي — المقياس القويم والقسطاس المستقيم لجميع الادوار التى تتقلب فيها الانسانية . فالحكومات التى توالت والدولات التي تعاقبت الواحدة تلو الاخرى ، ما انحدرت من أوج الاقبال الى وادى الادبار وما سقطت من سنام العز الى حضيض الذل ، الا بسبب تلك العلل والادواء التي بينها لنا المؤرخ العلامة « كاتب شلبي »

ها كم صفحات التاريخ ، فكلها عظات وعبر ، تحدثنا بأوضح

---

(١) تقويم التواريخ لكاتب جابي

بيان وأفصح لسان عن مصر جميع الحكومات والامم، شرقية كانت أم غربية، وكيف انطفأ نور سعادتها وخبا ضوء عزها، فى طريق العظمة وسبيل غرورها وتمشيها فى مسالك الرفاهة والنعمة وكيف كان ضياعها وفقدان مزاياها وامحاء شخصياتها عقب ولوجها مناهج الغرور .

أجل ماحال تلك الامم والشعوب ؟ لقد خبا نور عزها بعد أن كان ساطعاً مشرقا وتقوضت دعائم مجدها بعد ثبات ورسوخ فذهبت ضحية الاحتشام والدبدبة وهوت من سماء العالم كما تهوى النجوم السيارة فى ليالى الصيف .

مامن أمة استطاعت أن تقف فى وجه هذا القانون الازلى، فبغداد لم يغنها علما وعرفانها فتيلا ، والقاهرة لم يجدها صناعاتها وفنونها نفعاً ، وتونس لم ينفعها سحر بدائعها شيئاً . كل هذه العواصم التى ازدهت بأنوار المدنية والعمران وازدهرت بأشعة العلوم والفنون زمناما وكادت تصل الذورة أو تقترب من قمة الكمال ، اعتراها الدوار وهي فى الطريق فلم تحرص على أوضاعها القديمة التى أوصلتها الى تلك الحال

هذا داء استعصى دواؤه على نطس الاطباء وأجلة الحكماء واحتار فى تعليله وتشخيصه جمهور العلماء والادباء . وكما أن تيموراً الفاتح الكبير لم يتمكن من الاحتفاظ بملكه الشاسع ،

كذلك الاندلس لم نجد وسيلة الى تخليد مجدها وعظمتها ، وهكذا الحال مع حكومات الرومان واليونان . فما من قائد أوحاكم اشتهر بين قومه بالبطولة والعظمة ترك عادته القومية وتربيته الوطنية وحياته الساذجة الصافية الى حياة الرفاهة والدعة الاوقد غلب على أمره ولاقى وبال نفسه . فهام رجال الحرب والكفاح من أبناء الرومان ، من الذين جالدوا وناضلوا فى المعامع والمعارك حتى تكللت رؤوسهم بأكاليل الغار ، ما كاد هؤلاء يتقلبون على فراش النعمة ويتوسدون رياش الراحة ، حتى فارقتهم صفات البطولة ومزايا الرجولة التي شرفتهم ورفعتهم على هامات الشعوب ، فصار أحدهم بعد تلك الخشونة وممارسة أنواع الصعاب وضروب المشقات ، يجرحه النسيم ويدميه لمس الحرير ويتأذى من وريقة الورد اذا وجدت عرضاً بين حشايا فراشه الناعم الرقيق ..

وهل أتاك حديث الاغريق ، وما كان من شأن علماء أثينا الذين خلبوا ألباب العالم بواسع أفهامهم وعظيم ذكائهم ؟ ألم تر كيف كان بهاء مجدهم وانتشار مدينتهم واستفحال كلمتهم فى مشارق الارض ومغاربها ! . . . ثم انظر الى مصيرهم بعد تلك العظمة والى انطفاء نورهم بعد ذلك الاشراق سلكوا سبيل الرفاهة والزينة فانفرط عقد نظامهم حتى أصبح موطنهم مزرعة للدسائس والفتن وفقدوا الانسجام الكامن فى حياتهم الشخصية كما تفقد الكرات

موازنتها الطبيعية وهووا الى الحضيض فالدمار

وقد كانت بغداد ، تلك المدينة الاسلامية الزاهية الزاهرة وعاصمة الخلافة وركنها الركين ، هدفاً لهذا القانون ، فتمشت مع تياره . ولم تستطع ثباتاً أمام سلطانه . وصلت الى أوج العز ومنتهى الكمال ثم تدهورت الى مهاوى الانحطاط ومنحدرات السقوط كغيرها من الامم السالفة والممالك البائدة

قامت بغداد هذه فى العصر الثانى للهجرة تمثالا حياً لمدنية الاسلام وبرهانا ناطقاً على أن هذا الدين المبين من أكبر العوامل على الرقى والفلاح . وما كاد ينقضى عام ونصف على تأسيسها حتى انتشر العمران في خراباتها وسرى نور العلم والعرفان فى عرصاتها ، يخطف الابصار ببريقه الوضاء ثم تبدل فقر الاهالى واملاقهم الى الغنى والرفاهة وبسطة الرزق وسهولة العيش. وفى ذلك ادلال على اعجاز هذا الدين وتنبيه الى جلاله وعظمة شأنه ، فطوبى للامم التى تصل مواطن العز ودرجات الانبال من طريق تنظيم حياتها وفقاً لاوامر الدين ، وطوبى لاولئك الذين يصلون تلك المرتبة العالية من طريق العمل بالامر النبوى الجليل : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثانى

لما صار الملك الى العباسيين واستقر نصاب الخلافة فيهم بتدبير السفاح ، وبمعونة الايرانيين اتباعه وأشياعه ، نقل عاصمة الملك ومقر الخلافة من دمشق الى (الكوفة) ليكون قريباً من رجاله وحزبه غير أنه لم يجد فيها ما كان يطلبه من الراحة والطمأنينة فغادرها الى (الانبار) على شاطئ الفرات ومكث فيها الى آخر أيامه وفيها انتقل الملك الى ابنه المنصور . وكان مضطلعاً بالامر قوي الشكيمة ، حازماً متدبراً فتخوف من أبى مسلم الخراسانى ، ذلك القائد العظيم الذى ارتفعت دولة أبيه على أكتافه وتمت له الكلمة بهمته وفضله ، فدبر له مكيدة أودت بحياته . ثم ابتنى مدينة (الزوراء) على نهر دجلة من العراق ليكون بنجوة عن شغب أهل الكوفة ممن يكيدون للدولة ويقومون بمناصرة آل على ، والدولة اذ ذاك فى ميعة شبابها وأبان نشأتها وسماها (بغداد) أو دار السلام . وكانت تنقسم الى قسمين أحدهما يدعى (الرصافة) وفيه قصر الخلافة والى جانبه قصور الامراء من أقارب الملك وذوى رحمه ثم يتلو ذلك قصور الاشراف وسراة بغداد . والثاني وبه بيوت الباعة وأخلاط الناس ودور الصناعة والاسواق ويكتنفها سوران عظيمان يزيدانها

منعة وقوة وبذلك أصبحت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن وأصبح الخليفة فى أمن ودعة ، قرير العين ناعم البال فى قصره المحاط بتلك الاسوار المنيعة . ثم بنى خارج هذا الحصن المحكم قصر (الخلد) الشهير . وظلت تلك القصور الذهبية الفخمة حتي أيام الرشيد فكان يقضى أكثر أوقاته بها . وفى أيامه صارت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن . ثم حذا من جاء بعده من الخلفاء حذوه فكانوا يأخذون مغارم الحروب من كتب اليونان وعند ما ارتفع شأن الدولة ارتفع معها شأن العلوم والمعارف فى بغداد وبدأ يؤمها العلماء والحكماء على اختلاف طبقاتهم ، وينزحون اليها من أقاصى البلدان على بعد المشقة رغبة فى العطايا وأملا فى المنوال ولم يكن الخلفاء ليغفلوا أمر ذلك بل أجلوا العلماء وعرفوا لهم أقدارهم من الكرامة وأحلوهم أسمى الدرجات وأعلى المراتب . وأسال الرشيد عليهم الذهب النضار وأوسع لهم العطاء ، فتمشى العمران على جانبى الدجلة شرقا وغربا بالابنية البديعة والقصور الانيقة المحاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزهراء حتي أصبحت الدجلة كالحوض البديع يخترقها بغداد وما يليها من الضواحى والمنتزهات كأنها المرآة الصافية يحف بها اطار شتى النماء والالوان .

نزل علماء الصين والهند على الرحب والسعة في مدينة السلام وطاب لهم فيها السعى والكد وان هي الا فترة من الزمن

حتى امتلأت بأفاضل أهل الادب وأعاظم رجال العلم وأكابر أصحاب القول في الفنون والصناعات من العرب والعجم والترك والكرد والديلم والكرج والروم والارمن [١] ثم تعددت بها المدارس والجامعات وتنوعت لديها دور الكتب والمستشفيات وأقيمت بها المراصد والمصانع وغيرها من مؤسسات العمران واشتغل أهلها بنقل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية فبرعوا فى علوم المنطق والرياضيات والطبيعيات والالهيات ورسخت ملكات تلك العلوم فالفوا فيها وأصلحوا ما استبانوا خطأه فى مسائلها وأضافوا اليها أبوابا أصابوا الرأى فيها .

سقيا لتلك الازمان والعهود التى كان الغرب ينهل فيها من موارد الشرق . ففى بغداد عظم شأن الفلك وفيها تقدم علم الكيمياء . وفي ذلك العهد الزاهر تدرجت الفصاحة والبلاغة وأساليب القول فى الخطب والانشاء الى أسمى المراتب فاستنارت العقول ورقت الطباع والمشاعر وتنافس الخلق فى ضروب البهرجة والزينة وأنواع الرفاهة وأصبح التظرف والتجمل ودقة الصنعة ديدن كل انسان وشعاره ، فسالت أنهر الدنانير وتغالى الناس فى اقتناء المجوهرات وأوانى الزينة من الفضة والذهب بكثرة لا تقع تحت حصر ولا قياس الى حد أن ضاعت قيمتها الاصلية

---

(١) المسعودى

وكانت العطايا والجوائز من الزمرد والياقوت والفيروز وغيرها من النفائس تنهال على الشعراء والادباء والحكماء كالسيول الدافقة بلا عدد أو حساب اذ كان الشاعر أو النديم أو العالم يأخذ مايتمناه من سامعيه اذا أجاد القول أو أحكم الشعر فى قولة يقولها أو حكمة يفسرها ولهم فى ذلك قصص متواترة تتناقلها الالسن جيلا بعد جيل . وكذلك الغناء كان له شأن يذكر حتى وصل الى ماوراء الغاية فى تشعب طرقه وكثرة مذاهبه وتفنن الناس فيه استدراراً للرزق وطلباً للحظوة لدى الامراء والكبراء ، فنبغ فيه كثيرون نقل التاريخ الينا اسماءهم دون الحانهم ومجهوداتهم التى بقيت للاسف كالالغاز التى لايتوصل المرء الى حلها .

فى هذه الايام السعيدة المبهجة من العصر الثانى للهجرة النبوية ولدت بطلة من بطلات الاسلام زادت نور عصرها اشراقا ، هى زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور ، منشىء بغداد .

الفصل الثالث

على مقربة من الموصل قصر جميل بناه المنصور وسماه (قصر الحرب) ثم وهبه الى ابنه جعفر عند ماعينه والياً على الموصل. في هذا القصر، ولدت زبيدة وفيه مات أبوها جعفر بعد ولادتها بثلاثة أعوام.

نشأت زبيدة في مهد الدولة العباسية فكانت مهبط الحب وموطن العناية والتجلة والاعزاز من قلوب بني العباس، لاسيما جدها المنصور، ركن الدولة العباسية ومقرها الاشراف وعميدها الاجل، فقد كان يؤثرها بقلبه ويختصها بحب فوق كل حب وهو الذي لقبها بزبيدة لما رأى من بضاضتها ونعومتها فغلب عليها هذا اللقب وصارت تسمى به دون اسمها الحقيقي. وقد قام جدها بتربيتها فأحسن أدبها وتربيتها فعلمها القراءة والكتابة ورواها الشعر وحفظها الاخبار والسير فشبت كلفة بالشعر [1] والمة

---

(١) ومن شعرها في رثاء ولدها الامين.

أودى بالفيد من لم يترك الناسا   فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له   أصبن منه سواد القلب والراسا
فبت مكتئبا أرعي النجوم له   أخال سنته بالليل قرطاسا
ورزئته حين باهيت الرجال به   وقد بنيت به للدهر آساسا

بالادب حتي كانت تزين حوائط غرفتها بالستائر الموشاة بالنظم البديع والابيات الموثقة .

كانت ذات ملامح جذابة وجمال خاص بنساء عصرها فاشتهر عنها الادب والكمال والجمال مع علو النسب حتى صار يضرب بها المثل فى الانديه العالية والمجامع الراقية . وقد ظهر من اعزازها والمغالاة بشأنها يوم أن زفت على ابن عمها الرشيد فقد عقد له عليها عام ١٦٥ هجرية وهى في السابعة عشرة من عمرها وتمت حفلة قرانها بأبهة خارقة للعادة لا يسع له مجال الخيال فكانت من أبدع الحوادث التى يرويها التاريخ[١] بأسباب وأطناب يقصر دونهما كل قول ووصف وقد نالت تلك الحادثة استحسان جمهور المسلمين المنتشرين فى أصقاع العالم ووقعت من نفوس كبرائهم وأمرائهم موقع الاستحسان فتهافتوا على هذه الحفيدة الهاشمية بأنواع الهدايا وضروب الجوهرات وصفوف الطيب وأدوات الزينة استجلاباً لرضاها ورغبة فى حظوتها . ولقد ألقى عليها في حفلة زفافها من غوالى اللآلئ ماأثقل سيرها وعاق مشيها ولقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقها على البسط

فليس من مات مردوداً لنا أبداً حتى يرد علينا قبله ناسا

(١) قاموس الاعلام

الموشية بأسلاك الذهب وهى تتهادى فى الثياب المزخرفة التي بالغوا فى تطريزها وتزيينها بأنواع الجواهر التي يعجز المرء عن تقديرها أو تقويم قيمتها .

كان الزفاف فى قصر الخلد المطل على مناظر الدجلة البديعة . وفى وسط تلك المناظر الخلابة ، تمتعا بأشهر الغرام وأوقات السعادة وما كاد يمضى على زواجها أربعة أعوام حتى ولدت له محمد الامين ثم بعد ذلك بعام واحد أى سنة ١٧٠ هجرية تقلد الرشيد زمام الخلافة بعد أخيه موسى وهو فى العشرين من عمره .

الفصل الرابع

كانت الاميرة زبيدة وسـيمة الوجه ، طويلة القد ، بضة الجسم ، بيضاء اللون ، بعينين راقتين وفم صغير (١) ، فخورة بأصلها وحسبها، تعتز كثيراً بانتسـابها الى الدوحة الهاشمية ، وفى حالها وطورها ما يشـ .عر بالهيبة الممزوجة بالوقار ، وبالعظمة التى تنحنى لها الرؤوس طوعا لا كرهاً (٢)

لقدكانت على ماوصفنا ، لأنها كوكب السَّحَر فى سماء العظائم، ولانها حفيدة خليفة وزوج خليفة . فكيف لا تباهى ولا تعتز ؟ ومن تكون من نساء عصرها أجدر بالفخر والسؤدد ؟

أما وفور فضلها ونبل خليقتها وصفاء قريحتها فما سار مسار الأمثال . ومن أجل هذه المزايا التى قل أن تتوفر فى امرأة أخرى تربعت على عرش عصرها المشمشع وقبضت بيـدها على صولجان زمنها الزاهر

وكان لباسها المعتاد جلباباً شاملا الى الارض ، وعلى هذا الجلباب وشاح يزينه نطاق مرصع بالجواهر ، تشده بين عاتقيها وخصرها . وكانت تتجافى عن التحلى بالاحجار الكريمة والجواهر النفيسة ترفعاً وأنفة ورغبة فى التميز عن عامة الناس . فما كنت ترى

---

(١) كتاب الفرج بعد الشدة (٢) زيدان

في أصبعها خاتماً ولا في معصمها سواراً ولا في جيدها قلادة وانما كانت نسيج وحدها فى لباسها وزينتها ولهذه الخصلة المتغلبة على نفسها كانت تزين بتلك اللآلئ النفيسة التي تضن بها على أى قسم من أقسام جسمها أحذيتها ونعالها المرصعة المقصبة بخيوط الذهب . وقد سألها ابنها المحبوب محمد الامين عن ذلك ذات مرة . فأجابته بوقار وشمم :

« أفعل ذلك لانى لا أريد التشبه بغيرى من النساء » (١)

أجل لقد كانت تنفر من التقليد والمحاكاة نفوراً شديداً وهذا النفور حدا بها الى ادخال تعديل كبير فى عصابة الرأس التى ابتدعتها العباسة أخت زوجها الرشيد . فما كانت تضع شيئاً من اللآلىء والجواهر فى عصابتها كما كانت تضع نساء زمنها وانما تضع قطعة من النسيج الاسود الرقيق ، بلا ترصيع ولا تطريز ، تزيد من هيبتها وتكسبها كثيراً من الروعة والجلال .

تكاد زبيدة تكون المرأة الاسلامية الاولى فى استعمال أوانى الفضة والذهب والاكثار من اقتنائها كما كانت نموذجا لغيرها فى اقتناء الملابس الحريرية والتأنق في صناعتها ويروى التاريخ أن ثوبا من ثيابها بلغت تكاليفه خمسين الف دينار . وبالغت كذلك فى تزيين نعالها وقباقيبها حتى كانت تجعلها من الفضة والابنوس

---

(١) زيدان

وخشب الصندل وتصنع سروجها من القصب وسلوك الذهب .
أما نسيج ثيابها فمن السمور والاطلس وضروب شتى من الاقمشة وكان يعجبها من الألوان الاحمر والاصفر والاخضر والازرق (١)

تركت بعد زواجها قصر الخلد وانتقلت الى قصرها الخاص المسمى بدار القرار على شاطئ الدجلة البديع وكان مقطوع النظير في زمانه تحيط به حديقة غناء ، تجلب الانظار بزهورها وخمائلها وأشجارها المثمرة الزاهرة . أما داخل القصر فكان لا يقل بهاء عن خارجه، اذ كان مفروشاً بذوق خاص وبأثاث منتخب وغرفه ودهانه مزدانة كل منها بزينة تغاير لما فى الاخرى .

الزينة، والابهة فى الرياش والاثاث، من أحب الاشياء الى زبيدة . فجلبت الى قصرها أبدع ما أثمرته العقول وأجمل ما أنضجته الأيدي فغدت غرفه آية الآيات ومعجزة المعجزات، ومن بين تلك الغرف، القاعة الكبرى التي كانت تتلاقى فيها مع ابنها المحبوب محمد الأمين وقد كانت مبنيـة على الطراز الارمنى ذات الرياش المجلوبة رأساً من بلاد الكرج . ففى أركانها الزرابي والحشايا والارائك والوسائد ، مبثوثة فوق بساط ثمين كبير الحجم من صنع العجم ، منقوش عليـه صور الطيور وأنواع الوحوش والصيادين من ملوك الفرس حولها، على أهبة الصيد والنقص (٢)

---

(١) المسعودى (٢) زيدان

وفى أطراف البساط أبيات حكمية واشعار رائقة تأخذ بمجامع القلب وقد كانت قبة القاعة من خشب الصندل وتتدلى منها قطع القماش من الحرير والنجود المنمقة ذات الصور والاشكال ، مشدودة على الجدران بحيث تغطيها وفي كل زاوية من زوايا القاعة شمعدانات من الذهب الخاص توقد فيها شموع العنبر ، وقد كانت هذه الشموع المعنبرة من أنواع الزينة التى اختصت بها زبيدة فى ذلك العهد الزاهر وكان ينصب لها وسط القاعة مقعد نفيس الصنع من الآبنوس المطعم بزخارف الذهب وفوقه الحشايا الرقيقة من ريش النعام المطرزة بسلوك الذهب (١)

ومنذ أيام هذه الاميرة العظيمة ، المغرمة بأنواع الزينة الكلفة بضروب البهرجة ، (٢) اشتهر الشرق بأنه معرض النفائس وطار صيته فى الآفاق . أجل ان انوار الشرق الساطعة فى تلك الايام بهرت أعين أهل الغرب . اما اليوم فاننا مع الاسف نأخذ انماط الزينه ونماذج البهرجة من الغرب فنهنئ انفسنا اذا ما أجادت احدانا محاكاة الغرب وتقليد أنماط الزينة المعمول بها عند أهله .

وكان سكان دار القرار لا يقلون شهرة عن شهرة القصر نفسه ، فقد كانت جوارى زبيدة من نخبة الجواري فى عصرها ، من ذوات الجمال والمعرفة بالقراءة والكتابة وانشاد الشعر . وبينهن

---

(١) المسعودى (٢) زيدان

مائة جارية اشتهرن بحفظ القرآن وتلاوته ليل نهار . وكانت زبيدة المتمسكة بآداب الدين ، يعجبها كثيراً سماع آيات القرآن المبين من جواريها الحافظات ، وقد اشتهر أمر هؤلاء وطار صيتهن في الاصقاع . ففي كتب التاريخ أن المار بجانب دار القرار يسمع أصوات ترتيلهن كطنين النحل عندما تكون على مقربة من خلاياها .

وكان لها من قلب الرشيد حمى لا يرام اذ ابثت ربة القول في قلبه وقصره (١) رغم المنافسات من جواريه العديدات؛ لوفور عقلها ونبل صفاتها ومزاياها التي انفردت بها دون سواها من نسائه فكان لا يسمى لامر دون مشورتها ولا يمضي في عمل دون رأيها وبالاجمال كان مفتونا بنفاذ لبها ونبل خليقتها وعظمة قلبها .

كانت زبيدة من ذوات البر والاحسان . وخيراتها كثيرة جمة تجعلها من أمهات المحسنين في الاسلام وكما كانت اياديها عظيمة ومبراتها جمة كذلك كانت اموالها واملاكها وفيرة لا تقع تحت حصر او قياس ، حتى تحدثوا عن مزارعها وضياعها في بلاد العجم فضلا عن البلدان العربية . فكما كانت ظاهرة ممتازة في أكثر شؤونها وأطوارها كذلك كانت في غناها وثرائها

انشأت كثيراً من المدارس والمستشفيات وامرت بتأسيس الملاجيء وحفر الآبار والعيون فكنت ترى أثرها في كل مرافق

البر التي رفعت من صيتها فى الافاق .

* * *

كانت تكنى (ام جعفر) ولكن التاريخ يكاد لا يذكر اسم ابيها كثيراً وانما محور سيرتها يدور مع حوادث الامين ووقائعه وفي ذلك ما يملأ الصحائف وتفيض من دونه المجلدات. وابنها المحبوب هذا كان نقطة الضعف فى تلك الحياة العظيمة المملوءة بالحسنات .

كان ذلك الأمير الخليع المائق الذي لا يستحق شرف الولاية قد ملأ قلبها وغمر كل عاطفة من عواطفها فكان تماديها فى محبته وايثاره على كل امر آخر مهما عظم أو صغر هنة لا يغفرها التاريخ

ان التاريخ ليصب جام غضبه وسخطه على ذلك الحب الوفير الذى خصت به ابنها الامين ، لقد طغا ذلك الحب وجاش فتغلب على كل عاطفة أخرى وتعسف الى حد الاضرار بالمصلحة العامة .

كانت تعادى كل من ينظر الى مساوئ ابنها المحبوب نظرة اللوم ،وتغضب من كل انسان لا يغض الطرف عن هفوات ذلك الطائش . ان حب الامومة القى حجابا كثيفا بينها وبين عاطفة الانصاف الى حد الكمال عن كل عيب للامين والعداوة الى كل انسان ينقل اليها لوماً فى حقه .

كان الذين يفضلون المأمون على الامين ـ فى نظرها ـ مجرمين

لا يمكن الصفح عنهم وكان جعفر البرمكي من هؤلاء المجرمين الذين لا يمكن التسامح فى حقهم . لماذا ؟ لانه كان من أجرأ الناس على نشر مساويء الامين واذاعة نقائصه ، فأصبح من جراء ذلك هدفاً لسهام غضبها ، تمكن له الحقد فى سويداء قلبها .

انما كان كرهها لجعفر وسعيها فى اسقاط منزلته حباً فى ابنها الامين وكان جعفر يرى ان الامين لا يصلح للولاية فلم يخش من مجابهة أمه بهذه الحقيقة . أغضبها ذلك التصريح فأشهرت عليه منذ ذلك اليوم حرباً عواناً وقصرت كل همها على اسقاط منزلته من نفس الرشيد فكانت لا تعترف بمزية لجعفر ، وترى فيه عدواً يجب سحقه ومحاربته . وقد نمت هذه العاطفة فى نفسها الى أن تمكنت منها وبدأت تتشوق الى الانتقام منه وارواء غليلها بنكبته .

لقد نكب البرامكة لأجل الامين وكانت زبيدة من أهم الايدي العاملة على حياكة وتدبير تلك النكبة المفجعة ومن جراء ذلك يحملها التاريخ أكبر تبعة فى هذه الحادثة الاسيفة .

لو أن زبيدة امرأة ذات عقل متوسط وذكاء عادي ، لوأنها امرأة مجردة عن صبغة العلم ومزية الادراك ، لالتمسنا لها المعاذير والمبررات فى عاطفة الامومة التي تغلبت عليها ولكن امرأة كزبيدة ذات عقل وافر ، ولب نافذ ، وشخصية بارزة ، لا يمكن الصفح عن تماديها فى تلك العاطفة الى حد الاجرام وانتاج تلك المذبحة ،

التي سودت صحائف بنى العباس ، لان حادثة المباسة انما جاءت ضغثا على ابالة وكانت بمثابة القطرة الاخيرة للكأس الطافح ومن أجل ذلك كانت تلك المذابح وصمة سودت تلك الصحائف البيضاء من حياة زبيدة .

لو أن الامين من الابناء الجديرين بتلك المحبة والشفقة لكان هناك مجال للصفح عنها الى حد ما ، أما وهو خليع مائق معربد جليس الكأس والطاس فليس ثمت سبيل الى تبرير تماديها فى عاطفة الامومة .

كيف ضحت زبيدة الكاملة المهذبة رجلا كجعفر فى سبيل رجل كابنها الامين ؟

هذا اللغز الغريب من المظاهر الموجعة للأقدار ومن المحال أن يصل المرء الى حله . ووجه التسلية فى هذه الحادثة هو الاعتقاد بأن يد الاقدار هى التى حكمت على حياة جعفر الطيبة بتلك الخاتمة المفجعة .

الظلم والجور يحركان مشاعر التمرد في النفس ولكن ماذا عسانا أن نعمل وللانسانية المملولة حد من الكمال لا نستطيع أن نتعداه . لنسع فى سبيل التكامل ولنبذل قصارى الجهد ولكننا لا نصل الى مانريد مهما أجهدنا أنفسنا لانه ليس للبشرية أن تصل الى ذلك .

الفصل الخامس

فى العام السادس والثمانين بعد المائة من الهجرة، حج الرشيد مع امرأته زبيدة (١). وكان فى رفاقته خلق كثير من الاعوان والامراء، من بينهم ولداه الامين والمأمون، ووزيره جعفر بن يحيي البرمكى.

وقد أظهرت الاميرة أثناء حجها هذا، من المبرات والحسنات مالا يدع لقائل قولا، ولا لمفتخر سبيلا، مما ابتنته فى طريق مكة من مساجد ومكاتب وملاجئ ومنازل ومشارب. فكل ذلك ألسنة تنطق بخيرها العميم أبد الدهر ومدى العمر. وماكان ذلك كله اذا قيس بمفخرتها الخالدة (عين زبيدة) شيئا مذكوراً. قد احتملت هذه العين ماء الحياة سائغة، هنية الى أم القرى، الى متجه ابصار المسلمين ومعقد آمال الموحدين. وبتلك العين التى احتفرتها فى صحارى الحجاز الجرداء وفرت العناء واحتمال ضروب المشقات عن مئات الالوف من حجاج بيت الله الحرام الذين كانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤددهم ويوقر ظهورهم فلو فنى ذكرها من جميع الامصار وتناسى الناس صيتها فى جميع الاقطار فسوف يبقى اسمها خالداً خافق اللواء الى ما شاء الله فى ذلك الوادي

---

(١) الامير على

المقدس ، مناط وحدة المسلمين .

وقد كلف حفر اثنى عشر كيلومترا من هذه العين الجارية التي يعد مشروعها نفحة من نفحات السماء ، مليونا وسبعمائة الف دينار « ١ »

ومن غرائب آثارها في مكة قصر من البللور أنشأته في نفس مكة المكرمة يعد أية الآيات في بابه

هذه الرحلة الحجازية من أهم الوقائع خطراً في حوادث عام ١٨٦ هجرية لأنها كانت مبدأ سقوط جعفر من عز اقباله وأوج سعوده الى حضيض الادبار .

كان جعفر البرمكي، صاحب المكانة السامية في نفس الرشيد اذ ذاك ، وكان لايفارق مولاه لحظة واحدة أثناء تلك الرحلة وكان الخليفة يعتمد كثيرا على وزيره الصادق الامين ولايبرم أمراً دون استشارته ، وكل هذه الحالات كانت زبيدة تنظر اليها نظرة الحقد والاشمئزاز

كان جعفر يحب المأمون كثيرا اذ كان صبيا محبوبا نشأ في حجر البرامكة وتأدب بأرشاد جعفر وتعاليمه فغدا أميراً فاضلا مهذبا نافذ اللب واسع الفهم [٢] وكان محبوبا من عامة الشعب

---

(١) كل التواريخ متفقة في هذا التقدير

(٢) الامير على

لاتصافه بهذه المزايا التي يتصف الامين بعكسها ، فكان أخوه ينفس عليه ذلك أما زبيدة فكانت لاتحتمل هذا التفوق ولا تظهر مايدل على اغبرارها مع أنها لاتفتأ تبحث عن الوسائل التى تقضى على هذه الحالة التى تضرم فى نفسها نيران الغيظ والحقد. أجل كانت تجتهد فى اخفاء مايساورها من عوامل الكين اكراما لزوجها الرشيد ولكن جعفراً لايتمالك من اظهار تقديره واعجابه بربيبه المأمون علناً أثناء هذه الرحلة ففاض اناء حقدها الكامن في نفسها وبدأت تفكر فى الوسائل المؤدية الى القضاء على جعفر.

كان الرشيد وهو فى مكة المكرمة قد كتب وصيته وبايع للامين بولاية العهد وللمأمون بعده وكتب الكتب بذلك وأشهد فيها الشهود وأرسل نسخها الى الامصار وعلقت نسخة من تلك النسخ على الكعبة توكيدا لها وقبل تعليقها جمع من فى معيته من العلماء والفضلاء والوزراء . وعقد منهم مجلسا كبيراً للشورى وأحضر فيه زبيدة والامين والمأمون وجعفر ، وقرأ عليهم وصيته تأكيدا لها، وعندما حلف الامين والمأمون يمين الطاعة أمام أبيهما ،قال جعفر للامين عقب يمينه قل معى : (اذا خنت الامانة فليقهرنى الله) فكررها الامين ثلاث مرات وكانت زبيدة تنظر الى جعفر بعين الحقد وتحدجه بنظرات ملؤها الغيظ والغضب (١)

---

(١) الفخرى

هذه المعاملة المعنوية التى استعملها جعفر مع الامين، جرأة كبيرة ، تدعو الى غضب زبيدة وحقدها ولكن جعفراً ، ذلك الوزير الامين كان يفكر في سلامة المملكة ويضع نصب عينيه المصلحة العامة فلم ير بدأ من المضى مع وحي الوجدان والهام الضمير . لم يخش من قولة الحق ولم يلتمس سبيلا الى انقاذ حياته من الاستهداف لغضب رقيب عتيد كزبيدة . . .

تملك الغضب زبيدة وارتعشت من الحدة أمام ذلك المنظر وقررت منذ ذلك الوقت أن تقضى على جعفر ولقد تمكنت من أن تبر بقسمها الذى أقسمته أمام هيكل نفسها بعد مرور عام واحد على تلك الحادثة ففي عام ١٨٧ للهجرة قتل جعفر بن يحيى، ذلك الوزير الفذ، على يد مسرور الجلاد (١) وذهب ضحية عاطفة الأمومة التى جاشت فى نفس زبيدة ، وفريسة غرور الامين واعتسافه .

فتش عن المرأة فى كل حادثة : قتل جعفر فتعين الفضل ربيب نعمتها ومحبوب ولدها بدله وقد كان لها أكبر يد في هذا التعيين ، وبعد ذلك بستة أعوام مات الرشيد بطوس (٢) ودفن فيه وملك بعده ابنه الامين عام ١٩٣ هجريه .

---

(١) زيدان (٢) الامير على

الفصل السادس

لما مات الرشيد بطوس، كان المأمون فى مدينة (مرو) والياً على خراسان ، وكان الامين ببغداد وزبيدة بالرقة ، فانتشر نعي الخليفة بسرعة البرق وسعى صالح بن هارون الى الامين بخاتم الخلافة وسيف أبيه وكسوته الخاصة ، مبايعاً له حسب التقاليد والعادات (١) وكان الامين قد انتقل من قصر الخلد الى دار الخلافة . ولما كان من الغد صلى مع الشعب في المسجد جماعة وأعقب صلاته بخطبة وجهها الى الخلق والجند والوزراء فبايعوه بالخلافة عند انتهاء خطبته حسب العادة الجارية ، وكان المأمون في خراسان فلم يتمكن من مبايعته بشخصه، وانما اكتفى بارسال الهدايا وتقديم التهانى التي تقوم مقام البيعة .

أما زبيدة فقد طاب لها المقام فى الرقة ولم تشأ أن تحضر الى بغداد ولكن ابنها الخليفة ألح عليها بالحضور والتمس منها ذلك بكل وسيلة ، فلم تر بدا من الاجابة الى دعوة ولدها المحبوب ، فتوجهت الى العاصمة فى شهر شعبان المعظم ، وقام ابنها حتى مدينة الانبار يستقبلها ، باحتفال مهيب ، احتشد فيه خلق كثير ، وكانت الاعلام المتماوجة والزينات المختلفة وابتهاج الشعب ونشاطه

---

(١) الامير على

العظيم يأتي على مدينة الانبار ثيابا من الروعة ضافياً وجلبابا من الجلال شاملا

لقد كان لوصول زبيدة أثر من العظمة الخالدة التى لا يمكن نسيانها ، ولتلك المواكب الفخمة روعة دائمة الذكر في صحائف التاريخ . بمثل هذا الاحتشام تقدم موكب الأمين ومن ورائه الوزراء والامراء والاعيان ثم صنوف الخلق لملاقاة زبيدة القادمة الى عاصمة الملك وقصر الخلافة

هنا أخذ الخيال بيدى الى منظر آخر فى صفحات التاريخ ، الى صورة بارزة للجلال والاحتشام ، الى موكب اجتماع ملكة سبأ ، بسيدنا سليمان عليه السلام ودخولها فلسطين تحف بها آيات الاحتشام ومظاهر الجلال والكمال .

بين هذين الموكبين مشابهة ومحاكاة ، فيالله من بهجتهما واشراقهما ! . . وأى جمال للغرب يضاهى جمال هذا الاشراق الذى يستمد بهجته من ألوان الشرق ؟ . .

وصل موكب زبيدة بين الهتاف المتواصل وأصوات التهليل ومظاهر التبجيل والتقدير الى بغداد . ووقف أمام قصر الخلافة بالحاح الامين ورجائه المتواصل وهنا ألقت عصاها واستقر بها النوي

* * *

كان المأمون أثناء ذلك في خراسان لا يستطيع تركها لما كانت عليه من الفتن والدسائس، فكانت الاحوال تحتم عليه البقاء في خراسان وتأخير الشخوص الى بغداد

كان الرشيد على علم تام باخلاق ولديه الأمين والمأمون وبصفات ومزايا كل واحد منهما وقد كان تعيين الامين لولاية العهد مراعاة لخاطر زبيدة أما المأمون فقد كان يقدره حق قدره لشخصيته الفذة ومزاياه النادرة ولهذا السبب وجه اليه ولاية خراسان ، فأظهر حسن السيرة والورع حتى استمال القواد وأهل البلاد وكان فاضلا أديباً يميل الى اتقان العلوم والفنون ، ذا اطلاع واسع وأهلية تامة في تفسير القرآن وفي الحديث الشريف (١)

وقد كانت له ملكة عظيمة ودراية كبيرة في مسائل الفقه والتشريع حتى فاق أمراء زمانه وأصبح بينهم علماً يعتد برأيه وفضله

كان الرشيد ثاقب الفكر بعيد النظر فتوقع ماقد يفعله الامين من التهوس وسوء القصد بأخيه فأوصى قبل موته بجميع مافي المعسكر للمأمون ، وكان الفضل بن الربيع ، ربيب نعمة الامين ، خليفة جعفر بن يحيى على منصب الوزارة بغير جدارة ، يعلم مقدار هذا المعسكر وما دق وجل من شئونه رجاله

(١) الامير علي

وأحواله (١)

وعندما انتقل الرشيد الى جوار ربه ، وولى ابنه الامين شئون الخلافة من بعده ، زرع الفضل بذور الفساد والتمرد بين أفراد الجيش ثم روج بينهم الدعوة الى نكث أيمانهم ومواثيقهم للرشيد بأن يكونوا فى أمرة المأمون ، حتى مالوا معه وقفل بهم الى بغداد ، ومعهم جميع مافى المعسكر من مال وذخيرة ، وعندما وصل وزير الامين وربيب نعمته الى عاصمة الخلافة قابله الخليفه بالحفاوة والاكرام وأغرقه بالصلات والهبات ، ثم وزع على الجنود الخائنة ضعفى مرتباتهم تلطيفاً لخواطرهم ،

أما المأمون فقد وجد نفسه بلا جيش ولا مال ، فعمل على استمالة قلوب الشعب واكتساب رضى الناس وجمع رؤساء خراسان وأكابرها حوله وبدأ يدبر شئونه بمعونتهم وخفض الضرائب وسار فى الرعية سيرة العدالة والمروءة ، ولم يجابه مع ذلك أخاه بالعدوان أو يقابله بالاساءة انما كان فى أحواله وأطواره أميراً عادلا يصدر عن روية ويورد عن انصاف وتدبر .

وبينما كان المأمون فى خراسان على هذا النحو من التدبر والتعقل وحسن السيرة ، يجمع حوله أمراء أبيه المحنكين وشيوخ الدولة المدربين ، ليستعين بثاقب افكارهم وناضج آرائهم ، كان الأمين ببغداد منهمكا في اللذات وشرب الخمر ،

حتى أرسل الى جميع البلاد فى طلب الملهين وضمهم اليه وأجرى عليهم الارزاق ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه وفى الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد وعلى صورة الفيل وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس (١) يتنقل من واحدة الى أخرى ، عاكفاً على تمضية الوقت بين الغناء والمنادمة ، وقد كان لراقصاته صيت ذائع وكن مائة قد انتخبهن من أمصار مختلفة ، تجيد الواحدة منهن ضروبا من الرقص وفنوناً من الحركات التي تدهش الابصار وقد صرف عليهن مبالغ جسيمة إذ كن فى أبهى لباس وأثمن حلية يبهرن النواظر وهن يرقصن بأغصان النخل فى أيديهن وكلما اشتد اعجاب الناظرين ازداد غروره وتمادي في غيه والاعتداد بما صنفه من مظاهر العز والترف.

فى تلك الفترة الرهيبة كان أعداء الاسلام يراقبون الاحوال بعين اليقظة ، منتظرين الفرصة السانحة التى تبدو لهم من خلال غفلته.

---

(١) وفى قول أبو نواس

سخر الله للامين مطايا — لم تسخر لصاحب المحراب

فاذا ما ركابه سرن براً — سار في الماء راكباً ليث غاب

عجب الناس اذ رأوك عليه — كيف لو ابصروك فوق العقاب

ذات سور ومنسر وجناحين — تشق العباب بعد العباب

وانهما كه في اللذات وقد انفرجت لهم ثلمة الفرصة في خلال هذه الفترة وبدأوا يرفعون ألوية العصيان ويتحركون بعد السكون والجمود والامين لاه ساه كأنه فى نوم عميق يبدد أموال الدولة فى سبيل لذاته وشهواته بدل أن ينظر فى شئون حكومته ويعمل على سد حاجاتها المادية والمعنوية

أما الفضل بن الربيع ، وزيره الامين فقد خاف العواقب وكان كلما افتكر فيما فعله مع المأمون من نكث عهد الرشيد ووصيته بطوس ، ارتعدت فرائصه فرقاً وقد وضع نصب عينيه أن ولاية المأمون للخلافة ان عاجلا أو آجلا معناها موته والقضاء عليه لان المأمون لا يترك له هذه الخيانة دون عقاب صارم فلم يطق احتمالا لهذه الفكرة التى كانت تقلق خاطره ليل نهار وتنفي النوم من عينه ، فحسن للامين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى فلم يوافقه أولا ورأى الفضل أن آماله كادت تخيب فألح عليه فى هذا الرأى وأشرك معه شريك النفاق والرياء ، على بن عيسى ، فروجا هذه الفكرة وحسناها للامين ومازالا به حتى مال الى أقوالهما وشرع فى خداع المأمون باستدعائه الى بغداد ، فلم ينخدع وأدرك مافي ذلك من الخطر والبوار ان هو ترك خراسان ، فكتب يعتذر وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما ونهض الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس ، وضبط له

الثغور والامور ، واشتدت العداوة بين الأخوين : الأمين والمأمون، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان وفتشت الكتب وصعب الامر ، وقطع الأمين خطبة المأمون ببغداد وقبض على وكلائه ، ثم خلعه وولى بدله ابنه موسى ولياً للعهد بلقب (الناطق بالحق) وأحضر كذلك وصية أبيه من مكة المكرمة ومزقها إرباً .

على هذا المنوال نما الشر بين الاثنين وقضى على مشروع الرشيد ولم يبق من آثاره سوى ما كان له من حسن النية .

لقد حنث الامين بيمين قطعه على نفسه ونكث عهداً عاهد به أباه ولم يعبأ بتلك الوصية التى تحرمت بتعليقها على جدران بيت الله الحرام .

لم يندم الامين على مافعل ،ولم يخجل عند ما ارتكب تلك الفعلة الشنيعة فلا بدع ولا عجب لأنه شب منذ الصغر ،صغير النفس وضيع الهمة لا يقدر لشرف الوعود والايمان قدراً .

لذلك رأينا المأمون يستعد ، وكان بقدر ما عنده من التيقظ والتبصر والضبط ، بقدر ماعند الأمين من الاهمال والتفريط والغفلة ، وقد بلغ من تفريطه أنه أرسل الى حرب أخيه رجلا من أصحاب أبيه يقال له على بن عيسى بن ماهان فى خمسين ألفا ويقال أنه مارئي قبل ذلك ببغداد عسكر أكثف منه ، وكان

معه السلاح الكثير والاموال الوفيرة وخرج معه الامين مشيعا مودعا ، وكان أول بعث بعثه الى أخيه ، فمضى على بن عيسى بن ماهان فى ذلك المعسكر الكثيف وكان شيخاً من شيوخ الدولة ، فالتقى بطاهر بن الحسين قائد عساكر المأمون بظاهر مدينة (الرى) وكان عسكر طاهر حدود أربعة آلاف فارس فاقتتلوا قتالا شديداً فكانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى وجئ برأسه الى طاهر .

وأرسل طاهر الى المأمون يبشره بذلك الفوز وأرسل البشرى مع رجل من رجال البريد فوصلت الى المأمون فى ثلاثة أيام وبينهما مسيرة مائتين وخمسين فرسخا

ومن الغريب أن الطاهر فى كتابه الذى بشر به بذلك الظفر أوجز غاية الايجاز مع الالمام بالموضوع من جميع وجوهه وهذه نسخته :

(أما بعد فهذا كتابي الى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ورأس علي بن عيسى بين يدى ، وكان خاتمه فى يدى وجنده تحت أمرى والسلام)

وقديماً فعل ذلك (جول سيزار) عندما تغلب على قبائل الغول ودخل مدينة (لوتاس) وهى المدينة الاثرية التى بنيت على أطلالها باريس ، فقد كتب الى مجلس الأعيان بروما ثلاث

كلمات فيهن كل وصف واطناب وهى : (جئت فرأيت فقضيت)

لقد اغتاظ الفضل من انتصار المأمون وأطلق لغضبه العنان الى حد مصادرة أمواله وعقاره وحجز ولديه الصغيرين ببغداد ولقد هم أن يقتلهما لولا ممانعة الامين ، ثم توالت البعوث من جانب الأمين بعد هزيمته المنكرة وكانت الغلبة للمأمون فى كل مرة ، وفى سنة ثمان وتسعين ومائة .هجم طاهر بن الحسين، على بغداد بعد قتال شديد وحاصرها عدة أشهر وأخذ الأمين أمه وأولاده الى عنده بمدينة المنصور ،وتحصن بها ولقد أشاروا عليه بالفرار الى الشام فلم يفعل ارتـكانا على مروءة أخيه وشهامته ان هو سلم نفسه اليه وبادر فى مذكرات الصلح وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وحصره طاهر هناك وأخذ عليه الابواب والمنافذ ولما أشرف على أخذه طلب الأمين الأمان من (هرثمة) وأن يطلع اليه فروجع فى الطلوع الى طاهر فأبى ذلك فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، خرج الأمين بعد العشاء الآخرة وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فأرسل اليه هرثمة يقول ، انى غير مستعد لحفظك وأخشى أن أغاب عنك فأقم الى الليلة القابلة ، فأبى الامين الا الخروج تلك الليلة ، ثم جاء راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثمة ، فصعد اليها فاحتضنه هرثمة وضمه اليه ، ثم شد أصحاب طاهر من الاعجام

على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فسبح الامين وهرثمة حتى وصلا الى الساحل بكل جهد ومشقة والتجئا الى بيت صغير. وكان هرثمة قد غطى الأمين بطيلسانه حفظاً له عن الأعين وعمل ما فى وسعه لنجاته ولكن كيف يستطيع ذلك بمفرده وأنى له أن يثبت أمام مشيئة الاقدار ان (لكل أجل كتاب) ... ؟ فقد وصل الأعجام الي الامين فى مكمنه ، هجموا عليه بسيوفهم المصلتة حتى قتلوه ؛ ولقد غضب المأمون من جراء ذلك على القتلة وأمر بجمعهم ومجازاتهم لما أرتكبوه وأجري النفقات على الموجودين فى قصر أخيه وألحق ولدى الأمين بزبيدة لتربيتهما وهكذا عمل ما فى الامكان لتلافى ما حدث بغير رضاه وبلا أمر منه.

قتل الامين ، ولد زبيدة المحبوب فى الثامنة والعشرين من حياته وكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكسر

اقد أقسم الامين أمام أبيه بحفظ وصيته وعاهد ربه ثلاثا أمام جمع حافل أن يكون مستحقاً لغضب المولي عز وجل وقهره اذا هو خان الامانة ، ثم نكث بالعهد وحنث بالقسم ولم يعبأ بشرف الوعد أفلا يكون في ذلك دليل على الغباوة والجهل وقلة التدبر ؟ ..

(الفصل السابع)

اضمحل نفوذ زبيدة وتلاشى شأنها بعد خلافة المأمون ولم يبق لعظمتها مجال ومتسع . ولقد اضطرت أن تعيش فى دائرة محدودة تحت ظلال السكون والاستكانة والنسيان على غير ما تعودت وبخلاف ما نشأت عليه ؛ لأن طاهر بن الحسين ، قائد المأمون ، ذلك الذى تغلب على ابنها الامين وقهر جيوشه وكسر شوكته لم ينس ما لحق المأمون من الاهانة وما ناله من الاذى وما تجشمه من المشقة فى سبيل الامين فاضطهد زبيدة وعمل على تعذيبها واذاقتها ألوان التحقير والاهانات . ولقد صبرت زبيدة على الاذى وتحملت كل ذلك بصبر وثبات جأش وأنها لجديرة بالتقدير لثباتها هذا ، لان زبيدة العظيمة (امرأة الرشيد) تلك التى عاشت مكرمة معززة مرفهة طول حياتها دون أن يصيبها مكروه أو يعكر صفو حياتها أذى أو تسمع أو ترى ما يشعر بهوانها ومذلتها لم تذق طعم الهوان قبل ذلك اليوم

لم يرض طاهر أن يسمح لنفسه بالنسيان عن أحوال زبيدة وحركاتها التى بدرت منها أيام ابنها الامين ، فحكم عليها ، على امرأة الرشيد الاصيلة النجيبة بأن تعيش فى ضيق وشدة ، أنه الانتقام ليس من الشرف فى شئ بل هو ضرب من ضروب

النذالة . ولقد تألمت زبيدة من تلك المعاملة ولم تدر ماتفعله ازاءها لان يد الاقدار التى ضربتها تلك الضربة القاسية جعلتها فى حيرة من أمرها لاتهتدى الى سواء السبيل ، ولانها ما كان يخطر على بالها أن تظل كذلك متروكة منسية في بغداد وعند ما فاض اناء صبرها وضاق ذرعها تجلدت فأمسكت القلم بيمينها وسطرت تستعطف المأمون وتقول :

« كل ذنب ياأمير المؤمنين وان عظم صغير فى جانب عفوك وكل اساءة وان جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عودكه الله ، اطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ودفع عنك الشر والضير وبعد فهذه رقعة الولهى ، التى ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر ، فان رأيت ، أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي ، وتصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغباً فافعل وتذكر من لو كان حيا لكان شفيعي لديك » ثم أضافت الى ذلك أقوالا شرحت فيها معاملة طاهر واضطهاده لها وقالت : « فان كان ما يفعله صادراً عن رضاك رضيت بنصيبي من الاقدار وان كان يعتسف بغير رأيك فانك قادر على تغيير الحال » .

وقد ارسلت الرقعة مع جارية لها تدعى خالصة وأوصتها أن تسلمها الى المأمون يداً بيد .

وما كاد المأمون يقرأها حتى بكى وقال لمن حوله قول على عليه السلام عند ما وصل اليه خبر استشهاد عثمان رضى الله عنه: « والله ما كان ذلك برأيي ولا علمي » ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ورد اليها أموالها وضياعها وعمل على رفع قدرها واصلاح شأنها ليمحو من نفسها أثر الاحزان التى انتابتها ، كما وبخ طاهرا على ما فعله .

بعد ذلك نرى زبيدة فى عيش رضى ونعمة تامة ، تستعيد بهجتها السابقة وعظمتها السالفة ، وتعمل على نسيان الاساءة التى لحقتها على يد طاهر بن الحسين ، تحت ظلال وارفة من نعم المأمون واحساناته المتوالية

(الفصل الثامن)

بعد انتهاء الحادثة بتلك الخاتمة الحسنة ، يظهر اسم زبيدة مرة ثانية فى صفحات التاريخ ، يسطع باشراقه السابق ورونقه السالف وقد ظل هذا الطابع مظهراً لحياتها الباقية الممتدة حتى عام ٢١٠ من الهجرة .

وكما أن الجماعات التى تمر أوقاتها فى سعادة ورفاهة ، قل أن توجد فى سلسلة وقوعاتها حادثة مكدرة أو واقعة تحرك كوامن الالم ، كذلك الافراد الذين تتوالى سلسلة أيامهم بالسرور والصفاء لايجد الرائي خلالها من الحوادث المؤلمة والوقائع المكدرة ما نسجلها عليهم . وهكذا الحال مع زبيدة : ظلت هنيئة مغتبطة بعيشها بعد خلاصها من شر طاهر بن الحسين وأذاه ، فقد تعاقبت عليها الايام بصفاء غير ممزوج بأكدار الحياة وهذه حالة طبيعية فى حياة امرأة عظيمة تعيش فى كنف خليفة عالى الهمة ، رقيق الحس ، جميل الشيم ، كالمأمون .

من الحوادث التاريخية البارزة في تلك الفترة من حياة زبيدة ، عقد قران المأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل فقد كانت زبيدة من أكابر الرؤس التى حضرت تلك الوليمة وظهرت فيها بمظاهر الابهة والجلال ولم تكتف بهدية الجهاز التى

قدمتها للعروسين مما كلفها ٣٥٠ مليون من الدراهم وانما تبرعت كذلك لبوران باحدى ضياعها الكبيرة فى ولاية (الباخ)

لقد كانت وليمة الزفاف في مدينة (مرو) فى شهر رمضان المبارك من العام العاشر بعد المائتين للهجرة وانتهت بأبهة فخمة لامثيل لها فى حوادث التاريخ حتى لقد قيل ان أيام العرس دامت سبعة عشر يوما تجلى فيها الشرق واستفحاله في الابهة والفخامة مما لايقع تحت وصف أو حصر ولقد كانت كبريات السيدات من نساء بغداد وغيرها من عواصم الاسلام وأمصاره يختلن فى الحفلة باثياب الفخمة والحلى الثمينة التي يأخذ بريقها بالابصار ومن لنا بتصوير حالة زبيدة ونفسيتها فى ذلك الموقف، وهى تشاهد تلك الحفلة . لقد تذكرت بلا ريب، بشيء من اللوعة والمرارة المعنوية حفلة زفافها في قصر الخلد منذ خمس وأربعين سنة مضت، ومن يدرى الى أى حد ذهبت بها ذكريات تلك الايام الذهبية الماضية لقد كانت اذ ذاك واحدة بغداد فى الحسن والجمال وقرة عين جدها المنصور عميد آل بني العباس، ولقد خيل اليها وهي في تلك الحال من الرفاهة وما يحيط بها من أنواع الحفاوة والدلال أن الحال سيدوم معها على ذلك المنوال وأن حسن الطالع سيلازمها طول الوقت ومدى العمر

لقد كانت صبية حسناء في السابعة عشرة من عمرها ولقد

كانت محبوبة معززة من عريسها الرشيد الذى يبسم له حسن المستقبل فكان اليوم يومها . ومن البديهى أنه لم يكن فى تلك الحفلة امرأة أشد ذهابا مع الذكريات وأكثر استعراضاً للحوادث منها تلك الحوادث التى تمر في المخيلة تباعاً كما تمر الوقائع في شريط السينما . . .

أما عروس اليوم فهى بوران محبوبة المأمون اكبر رأس تنحنى له الرؤس . والشعراء الذين تهافتوا على وصف جمالها وتدبيج القصائد فى ذكر كمالها ، يتهافتون اليوم على وصف بوران وقدح زناد الفكر فى ترصيع آيات التمجيد والاعظام لها

لقد كان اليوم يوم بوران فزبيدة في تلك الحفلة تمثال الماضى وبوران صورة الحاضر ، ووجود هاتين المرأتين معاً جنباً الى جنب فى الحفلة لوحة بديعة ذات معان سامية تصور منظراً من أغرب مناظر الحياة ! . .

كان المأمون يحب بوران الى درجة بعيدة المدى فأراد أن يظهر له حبه متجلياً فى إعزازها وتكريمها بتلك الحفلة ، فتم له ما أراد وظهرت حفلة زفافها عظيمة بليغة بقدر حبه العظيم .

لقد كانت حفلة مشرقة باهرة ، سطعت فيها القلائد على النحور ، والاقراط في الآذان والحلي على المعاصم ببهاء ورواء ولكن شخصية بوران كانت أكثر اشراقا من أى شيء آخر وجمالها

الساطع فاق روعة تلك الجوهرات والنفائس : ولقد قيل انه عندما أخذ المامون بيدها الى الغرفة المخصصة لها نثرت جدة العروس قطعاً من اللآلئ الكبيرة من على صينية من الذهب فوق رأسيهما وقد جمعت فيما بعد فصارت عقداً بديعاً زينوا به جيد بوران الناصع وقد قيل كذلك أن جدتها أوقدت فى غرفتها شمعة عنبر تزن أربعين منّاً ، و كتب الحسن بن سهل أسماء ضياعه فى رقاع و نثرها على القواد ، فمن وقعت له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها هذا خلاف الذهب والجوهر الذى نثره على عامة الناس فى ذلك اليوم مما بلغت تكاليفه خمسين مليوناً من الدراهم ، ولقد هال ذلك المأمون وأراد أن يعوض على وزيره ما أتلفه فى سبيل اعظامه فوهبه ايراد سنة واحدة من دخل احدى ضياعه الخاصة (١)

على هذا النسق البديع من الفخامة والعظمة انتهت حفلة زفاف بوران وبهذه الصورة البديعة بدأت حياة الزوجين السعيدين ، وبعد هذه الحادثة بست سنوات ارتحلت زبيدة الى دار البقاء فى التاسعة والستين من عمرها

هذه الفاضلة الممتازة من بنات بنى العباس ، من أجل نساء الاسلام ذكراً ، وحياتها التي دامت تسعة وستين عاماً ، صفحة ممتازة من صفحات التاريخ الاسلامى

كانت ذات شخصية بارزة ، وصفات سامية ونفس جذابة

ولقد سار ذكر جمالها مسار الامثال ببغداد ، وتغنى الناس بذكائها وفطنتها فى سائر الامصار اما حديث غناها فما ادهش أهل التوحيد ، وذكر خيراتها مما وقع موقع القبول والشكر فى قلوب جميع المسلمين .

لقد أتت من عظائم الخيرات ما لايدخل تحت حصر او قياس فأصبح اسمها مرادفاً لمعانى البر والمعونة والاحسان فهى لهذا السبب من الاميرات الجليلات اللواتى يفتخر الاسلام بهن على الدوام .

لقد أحبها الخلق لجمالها ولصفاتها المعنوية ولعرفانها وسمو أدبها ولكن شهرتها الخالدة جاءتها من طريق خيراتها العديدة وبركة الدعوات الصالحة الصادرة من القلوب المكلومة التي عملت على تخفيف ويلاتها . ظل اسمها خالدا عظيما وسوف يظل كذلك تلهج به الالسنة بالمحمدة والتمجيد الى ما شاء الله .

اما اثرها فى عصرها فظاهر جلى فقد كانت قطب رحي الظرف والمبتدعة لانواع كثيرة من ضروب الزينة حتي لقد يمكن وضعها فى صفوف كبار اهل الفن العاملين على احيائه وانمائه فى ذلك العصر

فى سيرتها شيء من الزلل وجانب من الخطأ ولكن لو وضعت حسناتها الى جانب تلك الهفوات لرجحت كفة خيراتها رجحانا

كبيراً . وأي امرىء من ابناء البشر مبرأ من العيب ، معصوم من الخطأ ؟ . . .

فزبيدة هذه من ملكات الشرق ذات الأثر الباهر ، ومن مخدرات الاسلام التى كانت عونا على رفع كلمة الشرق . فاذا ما ذكر اسمها وجب أن يذكر مقرونا برفاهة الشرق وفخامته وما كان له من علو شأن وارتفاع فى العصر الثانى للهجرة

ولهذا الاسم اثر كبير من الاعجاز فان له سحراً خاصا يجذبنا اليه ويجبرنا على الانحناء باعظام امام شخصيته لنقول من صميم افئدتنا « لقد كانت امرأة عظيمة »

بهذا الخشوع والاعظام فحسب نطوي سجل هذه الحياة الصالحة

الاميرة صبيحة

ملكة قرطبة

— ٩ —

الاميرة صبيحة

ملكة قرطبة

الفصل لاول

عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله ، ثامن ملوك بنى أمية في الاندلس ، ناصية معروفة فى التاريخ الاسلامى وعلم من اعلام الاندلس ، ما كاد يجلس على عرش الخلافة حتى بذل ما فى وسعه لترقية المملكة واعلاء شأنها ، الى ان وصلت اعلى درجات الرقى وفاقت ممالك اوروبا مدنية وحضارة فى المدة التى تقلد اثناءها الحكم وتقدر بنصف قرن

عاش هذا الخليفة المقتدر وله امل واحد ، سعى لادراكه وتحقيقه طول الحياة . ذلك الامل : هو مجد الاندلس وعظمتها وقد كانت همته اكبر من ان تكل ، فواصل ليله بنهاره مجداً ، مجتهدا ، حتى صير قرطبة جنة فيحاء ، تتخللها القصور الشاهقة والمساجد الكبيرة والمدارس العالية والمستشفيات العديدة ودور الكتب الحاوية لانفس الآثار والمآثر . أراد ترقية العلم فى ربوع بلاده ، فأحضر لها العلماء والحكماء من سائر ممالك العالم(١)

(١) الامير على

ورغب كذلك فى زينتها وبهرجتها فلم يأل جهده في تخطيط الشوارع وغرس الاشجار وحفر الترع والجداول الموصلة للأنهار وان هي الا عشية وضحاها حتى كانت قرطبة تنافس بغداد في أبهة الحضارة وأسباب الرفاهة والعمران ، وأصبحت موضع اعجاب كل من يقصدها من الزوار بحسن نظامها وبديع ترتيبها . واجتمعت كلمتهم على انها عروس المدائن ومعدن الظرف ومنبع انواع الكمالات (١) وان التاريخ لن ينسى أياديه البيضاء على العلوم والفنون وترويجه الزراعة والتجارة في تلك البلاد الجميلة التي أضاءت نفوس أهلها من رجال ونساء بأنوار العلم والعرفان (٢) حتى اصبحت ترفل فى تلك الحلل الجميلة ، حلل المدنية فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى ظلمات الجهل ، تتلمس لنفسها سبيل النور والضياء

وجه همته الى تنظيم الجيش وبناء الاساطيل (٣) وبذا أصبح صاحب الكلمة العليا فى مياه البحر الابيض . ولم يكتف بما كان يحرزه فى ميادين الحرب والقتال بل تطلع أيضاً الى التغلب فى ميادين السياسة فمالبث أن نال فيها قصب السبق وعقدت له بها ألوية الظفر والفخار

أكبر المسلمون من كافة انحاء العالم ما كانوا يرونه فيه من

---

(١) دوزي (٢) روزفيت (٣) الامير على

أمارات الذكاء ودلائل العدل مع ماكان عليه من حسن التدبير ووفرة الجاه وقوة السلطان وعزة الملك ، فعظمت منزلة قرطبة في أعينهم وأصبحت بمثابة القلب النابض لاجزاء الممالك الاسلامية الاخرى المنتشرة من أقصى المعمورة لاقصاها

كان عصر نهضة وزمان تجدد وانتباه وكان للعلوم والفنون وقتئذ تجارة نافقة وللاندلس من هذه النهضة نصيب وافر حيث كانت مطمحا لانظار الشعراء والعلماء وقبلة أهل الادب وغيرهم من الوجوه ورجال الفضل من كل صوب وحدب (١)

قال عبد الرحمن الناصر يخاطب ابنه الحكم : « كلما طال عهدى قصر زمانك يا بنى » وقد طال حقيقة عهد عبد الرحمن وكان ذلك لمجد الاسلام وعظمته لانه من احسن الازمنة التي عادت على الامة الاسلامية بالخير العميم ، بل أقول بأنه كان بلا مراء العصر الذهبي للاسلام المتوج تاريخه بأكاليل المجد والفخار

حسبك حسنة من حسنات عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير والقصر المعروف ببيت الزهراء (٢) ذلك القصر المشيد على مقربة من قرطبة فى أجمل بقعة من بقاع الاندلس

لقد عجز المؤرخون عن وصف هذا القصر ، وأوقع قلوب

---

(١) دوزى (٢) تاريخ الاندلس لضيا باشا

زائريه من أهل الفن فى الدهشة والاعجاب ، لانه كان أجل من أن يوصف وأبدع من أن يصور . كان مملوءاً بضروب الصناعة وصنوف البهرجة وأنواع الزينة من الداخل والخارج بحيث لا تقع العين الا على آية من آيات الفن أو منظر من المناظر الرائعة الجديرة بالاجلال والتقدير

كان ما يراه الانسان خارج القصر لا يقاس بما تقع العين داخله ، فقد كان لكل زخرفة من زخارفها حالة جذابة خاصة بها . وبالاجمال فهو من تلك القصور التى لا نسمع عن نظائره الا فى اقاصيص الجان وأساطير الاولين

كانت الحديقة المحيطة بالقصر من أجمل البساتين البالغة غاية الكمال فى التنسيق والترتيب ، تزينها أبسطة زمردية خضراء وأشجار باسقة شامخة بأنفها فى الفضاء وأحواض رخامية تحيط بها صنوف شتى من الورد والازاهير

وقد كان في القصر مائتان والف عمود من أنخر الرخام وقاعة استقباله مزينة بالذهب مطرزة باللؤلؤ والابواب من خشب الأرز ، منقوشة نقشا يحير الالباب والعمد غاية فى الاتقان والاحكام كأنها افرغت فى قوالب . وكان بها برك عظيمة يجرى منها الماء الصافى الى أبدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصورها

قال (المقرى) يصف أحد مجالس هذا القصر :

« سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك ، وجعلت فى وسطه اليتيمة التي أهداها (لاون) ملك القسطنطينية الى الناصر ، وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة وفى وسطه صهريج مملوء بالزئبق . وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون ذى البلور الصافى وكانت الشمس تدخل تلك الابواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . » (١)

كل زينات هذا القصر كانت بديعة مونقة وكل النقوش التى تزينه دقيقة ومحكمة أما الحوائط فقد كانت لوحات فنية نفيسة والاعمدة شفافة رقيقة ذات قوام جاذب وجماع هذه النفائس كان ينبعث منها نور وجلال يتضاءل أمامها أبهة قصر الخلدين الذى بناه الرشيد في بغداد

قصر الزهراء تاج أعمال عبد الرحمن الناصر ، شيده لتخليد اسم زوجته المحبوبة فزاد بذلك من شأن قرطبة وأهميتها وكان

---

(١) نفح الطيب للمقرى

سبباً فى لفت أنظار العلماء والأدباء اليه وا كتسابه محبة الشعب ونواله حمد أهل المشرق واستحسان أهل الغرب هذا الى تخليد اسمه فى طيات التاريخ بطريقة لا يمكن محوها الى أبد الآبدين

ولقد توفي سنة ثلثمائة وخمسين هجرية وهو فى الثانية والسبعين من عمره بعد أن سلخ خمسين حجة فى حكم بلاده

كانت قرطبة عند وفاته تحتوى على ١٣٠ الف مسكنا وثلاثة آلاف جامعا وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسعمائة حماما وستمائة خانا ، بينما كانت المكتبة الملوكية تضم بين جدرانها كتبا يتراوح عددها بين ٤٠٠ الف و ٧٠٠ الف مجلد (١) الا انه ترك ما هو أبلغ من ذلك وأعظم شأنا فقد ترك بين أوراقه الخصوصية جملة حكمية ضربت بها الامثال وسارت بذكرها الركبان ، هي قوله : « أحصيت أيام حياتي التى عشتها في صفو وهناء لا تظللها سحب الاكدار فاذا هي أربعة عشر يوما فقط »

ملك عظيم دانت له الرقاب وتوفرت له اسباب العز والجاه عاش مبجلا ، معززا ، ترمقه العيون بالمهابة وتحفه الانظار بالاجلال ولم يتمتع من أيام حياته الطويلة الا بجزء صغير — أربعة عشر يوما فقط ! . . فما أبلغ هذه الحكمة السامية التى تتضاءل أمامها جلائل المعانى

---

(١) المقرى

الفصل الثانى

مات عبد الرحمن وبموته طوى بساط ذلك الزمن الزاهر وفتح للاندلس أبواب عهد جديد هى : أيام الحكم المستنصر بالله

كان الحكم قبل تقلده منصب الخلافة عالما وقورا محبوبا من الشعب ، وفى مصاف أكابر الامراء في عهده (١)، ذا دراية بتدبير الملك وفنون السياسة ، خاض غمار الحرب بنفسه واشترك في ادارة دفة الاحكام على عهد أبيه ولذلك قابل اهل الاندلس خبر توليته وهو فى الثامنة والاربعين من عمره بمظاهر الارتياح والسرور ، اذ كان خير خلف لخير سلف

كان رحمه الله من حماة العلوم وأنصار الفنون ، يعتبر الكتاب من أحسن الندماء ويلذ له الاعتكاف في مكتبته الحاوية لنفائس الآثار الساعات الطوال يقطع أوقات فراغه من العمل بالدرس والمطالعة وكان للشعر والموسيقى فى نفسه منزلة لا تقل عن منزلة الكتب . وبالاجمال كان موسيقى الطبع ، مغرما بكل أمر معنوى نفيس، تخلبه نغمة العود والناى ويستهوي لبه الصوت الموسيقى الرنان . سمع ذات يوم وهو يروض النفس فى حدائق بيت الزهراء تلك الحدائق الوارفة الظلال المزينة بالورد والازهار ، صوتا

---

(١) المسعودى

جميلا نفذ الى أعماق قلبه وملك كل جارحة من جوارح نفسه، فبحث عن مصدره وعلم أنه صوت فتاة جذابة الملامح جمال صورتها يضارع حسن صوتها (١). تلك الفتاة هى : صبيحة التى ملكت على الخليفة حواسه وجعلته يتطرف معها الى حد الجنون فى الحب، هاجراً مكتبته ناسياً كل شىء فى العالم حتى كتبه وقد كانت أحب الاشياء لديه.

كثيراً ما يصادف الانسان فى حياته وجوها جميلة تترك جاذبيتها أثراً في النفس لايمكن نسيانه الى الابد وصبيحة كانت احدى هذه الخوارق، ذات جمال ساحر ونفس جذابة وروح حلوة ذات لطافة ورقة ففتنت الخليفة بخفة روحها وجميل صورتها فغدا أسير اللحاظ مكبلا بقيود الهوى

كانت الفتاة على شىء من الادب، أدب العلم والنفس وكانت تسامر الخليفة بأحاديثها الحلوة وفكاهاتها العذبة فلايطيق مفارقتها طول يومه، أما الليالى فكانا يقضيانها فى حدائق الزهراء الخيالية تحت ظلال أشجارها العطرة جنبا لجنب وهي تسكب فى نفسه كؤوسا من صوتها الرخيم لتزيده سكراً وهياما.

كان لصبيحة جسم شفاف ذات طراوة تحاكى نداوة الفجر ولذا كان الخليفة يدعوها على الدوام باسم (صبح) فهل أراد بهذا

---

(١) المسعودى

النداء المصغر المحبوب، ذكرى تلك السهرات المسكرة والاوقات اللذيذة ؟ أم انه أراد بذلك أن يعيد الى ذاكرته أحلام الفجر المشوبة بحمرة الشفق ؟ لا أدري . . . وانما يخيل لى أنه اذا ذكر اسم صبيحة لأى انسان تمثلت له صورة متوردة وتجسمت فى مخيلته مناظر تلك الحدائق العطرة ، حدائق الزهراء فتحيا فى ذهنه صورة الاندلس بخواطرها العذبة وذكرياتها اللذيذة بكل مافيها من لطف وظرف

أراد الله أن يتم نعمته على صبيحة فرزقت من الخليفة غلاما كان موضع سروره وفرحه، كأنما ملك به الدنيا بأسرها ، ومبعثا لسعادة الوالدة حيث كانت هذه الحادثة سببا فى عقد نكاح الخليفة عليها ، وقد اشترك الشعب فى أفراح الخليفة وعد هذا العام، عام ٣٥٢ من الهجرة النبوية ، أحسن الاعوام فى تاريخ الاندلس فتهافت الشعراء على مدح المولود وتخليد ذكراه وهرع الكبار والاعيان لتهنئة مليكهم والقيام بفروض التبريك ، حتى أن وزير الحكم خاطب الخليفة بقوله : « ان هذا المولود الشريف ، سليل ملوك بنى أمية ليسطع علينا بنوره منذ الآن فلماذا لا تشرق علينا كذلك الاميرة صبيحة التي منها هذه الشمس المنيرة ؟ » (١) ومنذ ذلك اليوم توطد مركز صبيحة وعرف أهل القصر قدرها فأحلوها

---

١ دوزى

المقام اللائق بها

وبعد عامين أي في سنة ثلثمائة وأربعة وخمسين هجرية ابتسم لها الدهر مرة ثانية فولدت للخليفة غلاماً آخر سمي هشام فعظمت منزلتها في نفس الحكم وازداد حبه لها الى حد بعيد المدى لأن مولوده الجديد ضمن له حصر الملك في أولاده وذراريه

كان الحكم يعد نفسه اذ ذاك أسعد مخلوقات الارض . له زوجة محبوبة هي : صبيحة ، وله من زينة الحياة الدنيا كل ما تصبو اليه النفوس : مال وبنون . فلم يبق شيء بعد ذلك يرغب فيه ، فكان يخصص مقداراً من وقته لادارة أمور المملكة والجزء الاكبر من أوقاته كان مصروفاً الى مشغوليته المحبوبة لنفسه وهي المطالعة واقتناء نفائس الكتب . وبذلك أخذت مكتبته تزداد قدراً (١)

كان الخليفة عبد الرحمن ملكا جليل القدر وحاكما مقطوع القرين . أما ابنه الحكم فكان عالما يجل العلم ويحترم أهل الفضل ولا يحجم في سبيل نصرة العلم والادب عن تضحية أمور دولته فانتهزت صبيحة هذه الفرصة واخذت تشارك زوجها في ادارة الحكومة ولم يمض على ذلك زمن كبير حتى كانت تشغل مركزاً

(١) ابن خلدون

ساميا في ميداني السياسة والادارة وتمكنت من اظهار ذكائها الفطرى وقدرتها على ممارسة الاحكام بشكل ادهش رجال الدولة. وكان الحكم من أولئك الذين يقدرون الاشياء قدرها ويقيمون للامور اوزانها ففطن الى مزايا زوجته في مسائل الحكم والادارة فأشركها فى الحكم علنا ووسع المجال لدائرة نفوذها وتأثيرها

كانت صبيحة فى اول أمرها صاحبة السلطان المطلق على عقل الخليفة وقلبه ثم اصبحت بعد ذلك بفطنتها وذكائها تملك روحه وما زالت تتدرج فى مراتب الكمال حتى صارت الملكة النافذة الكلمة فى كل بلاد الاندلس

الفصل الثالث

أخذ عهد الحكم يمر براحة وسكون تظلله رايات الامن والسلام لان أمراء الفرنجة الذين ناوأوه فى مبدأ حكمه كانوا قد تعبوا من كثرة ما لقوه من الهزائم المنكرة والانحدارات المتوالية فلم يروا بداً من اعادة السيف الى نصابه والاخلاد الى السكينة والمسالمة . وقد كان لهذه الحالة أثر بين فى توطيد أسباب الراحة فى أطراف البلاد الاسلامية ، مما جعل المسلمين من أهل الاندلس يرتعون فى بحبوحة الامن داعيين لخليفتهم بالعز والاقبال . أما الخليفة نفسه فقد انكب على مكتبته يرتبها ويزيد فى نفائسها ، حتى بلغت قائمة ما فيها من الكتب ثمانية وأربعين . مجلداً . فنعم بهذه الحالة ولذّ له أن يغوص فى لجج من العلوم لاحد لها ، ناسياً كل شأن من شئون الحياة اللهم الا مقابلة جماعات العلماء الوافدين اليه من سائر أطراف الممالك الاسلامية لاسيما من بغداد ودمشق والقاهرة ، فازدادت بذلك شهرة قرطبة وأخذت جامعاتها تنافس الازهر والمدرسة النظامية في أهميتهما العلمية .

يقولون ان العلم ليس له جنس ولا يمت الى وطن أو دين بآصرة قرابة أو نسب . ولذا كان الخليفة يشجع كل عالم ويأخذ بيده من اي جنس كان ، لافرق لديه بين مسلم او نصراني ، وكثيراً

ما جادت يده بالعطايا والهبات لكتاب قيم او مجلد نفيس اما الكتب النادرة التي لايرى سبيلا الى مشتراها فكان يأمر بنسخها واخذ صورها وبهذه الوسيلة اصبحت مكتبة قرطبة شعلة نور يستضيء العالم بأنوارها

فى ايامه وصلت الآداب العربية الى ذروة عزها وسامق مجدها كما نضجت علوم كالفلسفة والبلاغة والشعر ،وكما تعددت الطرائق وسبل التحسين فى علمي الجغرافيا والتاريخ وفنى الرصد والكيمياء . اما دروس الفقه والتشريع فكانا يدرسان بشرح وتطويل ويهرع الطلبة الى ورود مناهلها باشتياق كبير من كل حدب وصوب فقد كان عدد الطلبة الذين أموا حلقات دروس الفقه في ذلك المعهد يتجاوز عدة آلاف . اجل ان جامع قرطبة هو مهبط النور والهدي . فيه كان يعظ ابو بكر بن معاوية ليملأ قلوب الموحدين بأنوار الدين الاسلامى بينما كان ابن رشد وابن سينا والسعودي واحمد بن سعيد الحمدانى وغيرهم من اقطاب الحكمة واولياء الحجى يزينون عهد الحكم ومن وايه من الخلفاء بثمار قرائحهم وانوار معارفهم .

في هذا المعهد الزاهر ، الساطع بأشعة الحكمة ، كنت ترى طالباً منكباً على دروس الجامعة بكليته ، يميل اليه الطلبة وتخدمه الاساتذة . كان هذا الطالب شاباً ذكى الفؤاد جميل الصورة ، اذا

صادف وجوده وسط جماعة من الناس اصبح هـدفاً لانظارهم . واذا مر على قوم جذب اليه التفاتهم . كنت ترى فى عينيه بريقاً من صور الآمال وفي حاله وطوره وكلامه حالة خاصة به . كانت تظهر عليه امارات عظمة تترك الناظر اليه في دهشة وحيرة ، فكل من رأى هذا الشاب يحكم لاول وهلة وبدون ان يعرف اصله بأنه احد أولئك الذين سيرتفع شأنهم فى بلاد الاندلس ويحرزون مقاماً سامياً في مناصبها العالية

هذا الشاب هو محمد بن ابى عامر ، فخر الاسلام والشرق الذي اصبح بعد حين وزير الاندلس الملقب بالمنصور .

الفصل الرابع

محمد بن عبد الله بن أبي عامر يمنى المولد ، ينتسب الى قبيلة بنى معاذ الشهيرة (١) واسلافه من مشاهير الابطال ذوي الذكر العاطر فى تاريخ الفتح الاندلسى .

كان شاباً نشطاً ذكى الفؤاد ، جميل الصورة . تلوح عليه امارات العزم والاقدام (٢) ويرى المتفرس فى اسارير وجهه رجلا لا يعرف لليأس معنى ، لا يعزم على امر حتى يمضي فيه غير هياب ولا وجل انم دروس الجامعة ثم احترف بعدها مهنة الكتابة واتخذ لنفسه حانوتاً صغيراً امام القصر السلطانى لكتابة العرائض وتنميق المظالم وتحبير الشكاوى وقد كان له بين نفوس خدمة القصر المترددين عليه مكانة رفيعة واشتهر بينهم ونبه ذكره عندهم حتى كنت ترى حانوته على صغر حجمه غاصاً بهم . الا ان نفسه كانت تطمح الى ما فوق ذلك ، كان يفتش عن سعادته فى ركن واحد من اركان الأمل ، جعله نصب عينيه ليله ونهاره ، فقد كان يسعى جهده الى الالتحاق باحدى الوظائف في القصر .

جلس ذات يوم فى حانوته يحادث أصدقاءه ومعارفه كالمعتاد فاذا به وقد غاص فى لجج من الافكار وطار محلقاً فى سماء الآمال

---

١ دوزى ٢ تاريخ مسلمي الاندلس لدوزى

ثم انتبه فجأة لنفسه بعد حين وخاطبهم قائلا :

«سأكون يوما ما حاكم هذه الدولة فليسرد لى كل منكم آماله وأمانيه والوظائف التى يصبو اليها منذ الآن فانى محقق مطالبكم عند نوال بغيتى ان شاء الله» فتضاحك رفقاؤه وأخذوا يذكرون له ـ على سبيل الممازحة ـ الوظائف التى تطمح اليها أبصارهم .

بعد هذه الحادثة بزمن قصير طلب ابن أبى عامر الى قصر الخليفة كأنما الاقدار أرادت مداعبته، وكان الحكم راغباً فى انتخاب كاتب بارع لزوجته صبيحة فطلبوا بضعة أشخاص ممن توسموا فيهم القدرة على هذا العمل ليكونوا على أهبة الاستعداد لمقابلة الخليفة لهذا الغرض وبينهم ابن أبى عامر ، الصديق المعروف من خدم القصر وحاشيته .

ولقد كانت أجوبته بين يدي الخليفة من أحكم الاجوبة وأدلها على الفهم والروية فنال قصب السبق وفاز على المتقدمين معه الى تلك الوظيفة بدرجة فائقة لفتت اليه أنظار الاميرة نفسها . فقد كانت له حالة خاصة به تجذب انظار المتطلع اليه لاول وهلة (١) ومع ذلك فالخليفة التبس عليه الامر وتردد مبدئياً فى قبول شاب جميل كهذا لتلك الخدمة وفي النهاية لم ير بدًا من أن يكل امر الاختيار الى الاميرة نفسها صاحبة الشأن

---

١ دوزى

فوقع اختيارها عليه لانها لم تجد بين المتقدمين أليق منه للوظيفة المطلوبة. وانتهى الامر بموافقة الخليفه على تعيين ابن ابي عامر رئيساً لكتاب الاميرة.

ألا تعترف معي أيها القاريء بأن كاتب الاميرة هذا سعيد الحظ موفق الطالع فها قد نال أول أمنية من أمانيه العذبة التي طالما قضى الساعات الطوال مفكراً بها تحت ظلال حدائق قرطبة بسهولة ما كان يحلم بها . . .

قد خدمه حظه ورقى أولى الدرجات المؤدية الى ذلك القصر البديع ، قصر الآمال والتصورات فكان يري بعين الخيال انه سيدخل ذات يوم ذلك القصر ويمتع أنظاره بزينته وبديع رياشه وجميل أثاثه بل ان الامل كان يذهب به الى ابعد من ذلك فقد كان يرى انه سيفتخر بأبهته وسلطانه ويكون صاحب الكلمة بين سكانه .

كان يحلم بمثل هذه الآمال وكلما لج به الفكر ازداد سروره واشتدت بهجته .

وبينما كان الخليفة الحكم المنتصر بالله منعكفا فى مكتبته النادرة ، كانت الاميرة صبيحة تدير دفة الامور بمعونة حاجب الدولة عثمان بن جعفر المصحفى (١) وكان كاتبها الخاص محمد

---

١ لانبول

ابن ابي عامر يحرر اوامرها ويقوم بتبليغها الى مختلف الجهات .

كان الحكم خليفة البلاد اسمياً اما السلطان الفعلى فكان بيد صبيحة ، فزينة الاندلس ورفا هيتها والنظر في شئون الشعب واحتياجاته وتعليم أولياء العهد وتثقيف اذهانهم وتربية مداركهم كل هذه أمور كانت تقوم بها الاميرة .

وهي التى كان من رأيها جعل قرطبة محطاً لرحال أهل العلم ورجال الفضل والادب وهى التي كانت تقوم بترتيب الحفلات المتعددة داخل القصر وتدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد خارجاً. وهى هى التى كانت تعقد الجلسة تلو الجلسة بالاشتراك مع المصحفى وابن أبى عامر للمذاكرة والمداولة والمشاورة فى أحوال البلاد وتدبير الخطط اللازمة لمكافحة شر الاعداء والتنكيل بهم .

كانت لسان بيت الزهراء الناطق وحياة قرطبة الزاهرة وروح الاندلس النابض فانتشرت أنوار ذكائها فى كل صوب وناحية وقد اشتهرت بين الجميع بالكياسة واصابة الرأى حتى لم يبق انسان لم يعجب بحسن ادارتها وقيامها بالشئون العامة (١)

كانت الاميرة صبيحة معجبة بمقدرة ابن أبى عامر ، لاندري كيف تكافئ كاتباً نشطاً مثله !! أما هو فكان يلازمها بخفة روحه وطلاقة لسانه ويظهر لها الرغبة فى استخدامه ليس فى الامور

---

(١) كتاب مشاهير النساء

الكتابية فحسب بل فى كل شأن من شئونها ؛
وكان اخلاصه فى العمل مما يزيدها اعجاباً به الى حد بعيد (٢) المدى

اكتسب ابو عامر ثقة الجميع واستأنس به الكل حتى أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، وفي الحقيقة كانت اهميته تزداد من يوم لآخر حتى بدأ الناس يتوددون اليه . وقد كان يتزلف الى أصغرهم شأنا من قبل ، وما كاد حاجب الخليفة جعفر المصحفى يستشيره ويعتمد عليه فى بعض أموره حتى ازدادت منزلته رفعة بين أهل القصر الذين بدأوا يعقدون عليه الآمال ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان الخليفة نفسه لم يتمالك من الاعجاب به وقد رأى اخلاصه فى العمل وأدرك مواهبه ومزاياه

فى هذه الفترة ، وقد ابتسم له الدهر ، عهدت اليه الاميرة ادارة ضياعها وممتلكاتها ، فأصبح مديراً بعد أن كان كاتباً ، وبعد مضى زمن قصير احتاج الخليفة الى شخص أمين يعهد اليه ادارة الضياع الخاصة بولى العهد ولما كان متردداً فى انتخاب الشخص اللائق لهذه الوظيفة عرضت عليه الأميرة تعيين ابن أبى عامر لهذا الغرض . تردد الخليفة بادئ ذى بدء لأنه صاحب الرأي الاول في قبول أو رفض المرشح لهذه الوظيفة،حيث مازال له نصيب فى حكم البلاد .ومع ذلك فقد كان يعلم قبل أى انسان

(٢) ابن الزهارى

ان الرجل الذى يعهد اليه املاك ابنه يجب ان تتوفر فيه مزايا جمة وان كل هذه المزايا مجموعة في شخص ابن ابى عامر والا فهل هناك امرؤ أقدر منه على العمل وأشد منه اخلاصا ؟ (١)

فكان لزاما على الخليفة أن يقبله بلا تردد ولذا انتهى الامر بنزوله عند رأى الاميرة واصدار الامر بتعيينه مديرا عاما على تلك الاملاك والضياع ، ففى عام ٣٥٦ من الهجرة اجتمعت لابن أبى عامر ثلاث وظائف بمعونة الاميرة وحمايتها جعلته يطأ الدرجة الثانية من عرش آماله وأمانيه وهو فى السادسة والعشرين من عمره

كان ابن أبى عامر سعيد الحظ فخورا بوظائفه الثلاثة يصرف فى سبيل القيام بأعبائها كل مالديه من وقت وجهد ، كان أفق المستقبل يبدو لناظره منيرا مشرقا وأحلامه زاهية زاهرة ، فاطمأن ولم يقلق من المستقبل . أما كان يشعر بأن الحظ سيواليه بنعم اكثر ما دام ينسج على هذا المنوال ؟ والا فمن ينكر رقيه السريع فى زمن قصير . ألم يتقلد سلطة واسعة لاتخطر على البال وهو في مثل هذا السن، فى عامه السادس والعشرين ؟ وهل لم يكتسب ثقة المصحفي وصداقته ؟ ألم يكن أهل القصر بما فيهم الاميرات يعجبون بظرفه ورقة شمائله ؟ وفوق هذا ألم تكن الاميرة نفسها تظهر له ضعفا وميلا شديدين وتبذل ما فى وسعها لرعايته وحمايته

---

(١) دوزى

أجل كانت تفعل كل ذلك لدرجة اضطرته الى طرق أبواب الحيل ولبس ثياب المداهنة لانه كان مضطراً في حالته تلك الى ملاطفة أهل القصر ومراضاتهم جميعاً فكان يبسم لهذا ويلاطف ذاك ويعطف على تلك مراعاة للجميع حرصاً على ابقاء الظواهر على حالتها. وهذه حالة اكسبته رضى الجميع وجعلته محبوبا منهم يتقبلون هداياه بسرور وابتهاج وكان الخليفة يقول لاحد مقربيه : « ان كاتب صبيحة هذا رجل غريب الاطوار ، قد استمال اليه جميع من فى القصر وانني لأرى بعيني رأسي كيف يجلون هداياه التافهة ويفضلونها على أثمن هدية تقدم مني اليهم . فلست أدرى هل أعده من المخلصين الينا أم أعتبره ساحراً محتالا » ومع ذلك فان أبا عامر استمر يتقدم حتى أصبح بمساعي الاميرة ناظراً لخزينة الدولة ثم عين بعدها المدير المطلق لادارة (صك النقود) وبذلك أصبح فى مصاف كبار الموظفين فى الاندلس . وكانت الاميرة تباركه فى سرها وتهنم برقيه السريع ، وكم كانت شاكرة لمحاسن الصدف التي وضعت فى طريقها مثل هذا الكاتب الحائز لمزايا عديدة ، فلشد ما انتفعت بمواهبه وكثر ما اهتم هو بكل شأن من شؤونها . فهو اليها الشخص الوحيد الذى لا يمكن الاستغناء عنه أو الركون الى غيره . انه ليعلم آداب المعاشرة أكثر من المتربين بين جدران القصور ، ظريف لبق . تطربه النغمة الحلوة ، ذو المام بالموسيقى

قادر على مزاولة أى عمل يكلف به . أضف الى ذلك علمه بحالة الاميرة الروحية وادراكه للأشياء التى تبهجها وتقع من نفسها موقع الرضى والقبول . فلله دره من شخص رقيق الحس عالي الفكر !!

كل هذه صفات كانت الاميرة تفكر فيها وتراجع نفسها عما اذا كانت متغالية في تقديرها كلا كلا ان أبا عامر ليستحق منها هذا التقدير . . . . . هنا يتساءل القارىء هل كان ذلك مجرد تقدير فحسب أم انها تميل اليه دون أن تعترف حتى لنفسها بهذا الميل ؟ جواباً على ذلك نقول أنها كانت تحبه (١) تحبه لدرجة أنها أصبحت تجد لذة سائغة فى اعطاء الاوامر اليه وتكليفه بكتابة التحريرات المهمة وغير المهمة الي غير ذلك من الاسباب والمعاذر المؤدية الي مقابلته والاحتكاك به . . . . . ولكن هل كان هو يشعر نحوها بمثل هذا الميل ؟ ألم تكن فى ريعان شبابها وعز جمالها ذات صوت رخيم وملاحة جاذبة ؟ أليست هى الاميرة صبيحة ملكة قرطبة المحبوبة ؟ فهل يمكن ألا تحب . نعم ان أبا عامر كان يطيعها لدرجة العبادة لا لجمالها أو لمحاسن نفسها بل لوجاهتها ونفوذها . وكانت هى لا تميز فيه هذه الحالة لأنها أحبته من أعماق نفسها حبا ناريا تغلب على كل ما لديها من ارادة وعقلية . كانت

(١) لأن يول

تحبه محبة غير محدودة ، كحب شجرة الدر لعز الدين بن ايبك .
كلتاهما ، صبيحة وشجرة الدر وقعتا بين براثن محبة قاسية ، فوضت اركان شخصيتهما الممتازة وتركتهما تعانيان مرائر السلوى وآلام الهجران . كلتاهما بذلتا مافى وسعيهما لارضاء حبيبيهما الى حد ان أسقط ما لهما من كرامة وهوى بهما من سماء الرفعة والعز الى حضيض الذل ليمتزجا بالشخصين العزيزين لديهما فكل رغبة لهما أو كل أمل كان مقيداً بهواهما كلتاهما كانتا شمساً تتألق في سماء دولتها — تحيط بها نجوم وسيارات ثم انعكست الآية بعد أن تجرعتا كأس الحب فتبدل الحال بغير الحال وانحطتا الى دركة السيارات بعد أن كانتا فى دائرة الشموس والاقمار. وارتفع تبعاً لذلك شأن حبيبيهما ، محمد بن أبى عامر وعز الدين بن أيبك حتى أصبح كل منهما الشمس الساطعة فى دولته . أجل استفاد كل منهما من حالة حبيبته الروحية وجعلها ساعداً لاغراضه ومراميه وتم لهما ما أرادا بخاتمة مؤلمة تكتنفها الدموع وتحيط بها الآلام
تولى أبو عامر منصبه الجديد وأظهر امتنانه وشكره لاميرته وولية نعمته بهدية ذات قيمة سارت بذكرها الركبان كانت هديته نموذجاً صغيراً لاحدى قصور الاندلس الجميلة مصنوعاً من الفضة ومنقوشاً بغاية الدقة والاحكام وقد كان يوم نقلها من بيته الى القصر الملكى يوماً مشهوداً اجتمعت فيه آلاف

الجماهير لمشاهدة هذه التحفة اليتيمة (١) وقد سرت الاميرة من هذه الهدية الثمينة التى كلفت أبا عامر مبالغ طائلة وكان لها أثر بليغ فى نفسها . من ذلك الحين بدأ يقدم لها الهدية تلو الهدية مراعياً في ذلك أن تكون هديته الثانية أثمن وأرفع قدراً من الاولى . كل هذه أمور زادت سرور الاميرة وضاعفت من شكرها وامتنانها له الا أن تكرار هذه الهدايا على وجه من الاسراف لا يطابق حالة أبى عامر ، فك ألسنة الجمهور من عقال السكون وأخذوا يتساءلون ويتهامسون فى المجامع عن مصدر تلك الاموال الباهظة التى أنفقت فى سبيل مجاملة الاميرة ، فكانوا يقولون في أنفسهم : ان هى الا من مال الامة ومتوفرات بيت المال والافمن أين له كل هذه الاموال ؟ وقد اتسعت دائرة تلك الاشاعات وتماوجت حتى اتصلت بمسامع الخليفة نفسه فأرسل يطلب أبا عامر الى بيت الزهراء

ارسل الخليفة بطلب ابى عامر الى بيت الزهراء لتقديم الحساب عن أموال الحكومة المودعة تحت تصرفه.

هذه صدمة لم تكن في الحسبان ارتعدت لها فرائص أبى عامر لان الخزائن كان بها عجز ظاهر لا يعوضه الا مال وفير . ففكر فى الامر وقدح زناد الفكر فلم يجد امامه سوى الالتجاء الى صديقه

(١) دوزى

العزيز ابن خضير وقد التجأ اليه وطلب منه يد المعونة فكان عند حسن ظنه به لان ابن خضير أعانه على امره وأقرضه المال الناقص وبذا أتم ابو عامر شؤونه واكمل حسابه ويمم نحو بيت الزهراء آمنا مطمئنا وهناك أمام مولاه قدم حسابا دقيقا برهن به على امانته وأظهر اخلاصه وقطع السنة المخرصين والعداة كانت دفاتره مرتبة منسقة وخزائن الدولة ملأى بالاموال ودار الضرب تتوهج بسبائك الذهب والفضة فخجل الخليفة من نفسه ولم يسعه الا تقديم عبارات الشكر والاعجاب بناظر ماليته القدير ودفعاً للشبهة وسوء الظن عهد اليه بوظيفة جديدة هى وظيفة التفتيش العام

وفى اليوم الثانى لهذه الحادثة أعاد أبو عامر ما اقترضه الى صديقه الحميم وكان عمله هذا معجزة ألجمت السنة اعدائه وأوقعتهم في مهاوى الدهشة والحيرة. ان حسن الطالع مازال يناصره ويشد أزره وينجده اكثر من ذى قبل فها هو قد أظهر اخلاصه لخليفته وخرج من تهمته نقى اليد عالى الرأس وازدادت مكانته فى نفس الاميرة وعلت كلمته فى طول البلاد وعرضها حتى أصبح أوسع رجال الدولة نفوذاً وأعلاهم كلمة

ان انتصاره على اعدائه بتلك الكيفية زاد من محاباة الأميرة له فتمكنت من تقريبه الى الخليفة أكثر من ذى

قبل وأخذت تنشر محاسنه بين الناس جهاراً ولا ترى بأساً من المضى معه في تيار الهوي فصار ما بينهما حديث القوم فى سمرهم ومجالس أنسهم ولهوهم (١) حتى اصبح يخشى من وصول ذلك الى مسامع الخليفة ولذلك ارتأى المصحفي بعد موافقة الاميرة ان يذهب ابو عامر الى اشبيلية (٢) كحاكم مطلق فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين هجرية وبعد ان أقام بها مدة عبر الى مراكش عن طريق جبل طارق

فرح اعداؤه بهذا الابعاد واختلقوا عليه اكاذيب شتى كادت ان تمحو ماله من شهرة وبعد صيت ، الا ان صبيحة كانت ترمقه بعين رعايتها وتظلله بجناح حمايتها وهو بعيد عنها فقد كانت تذيع سراً ان الخليفة ارسله لمراكش لمراقبة دفاتر بيت المال وكشف احوال القائد الأكبر غالب . كان المصحفي يحقد على غالب ولذا اغتبط بمهمة ابى عامر لعلمه بأن هذا الامر يضايقه ويحرج مركزه الا ان غالبا كان قائداً جسوراً مقتدراً وماكاد يجتمع بأبى عامر حتى تفاهما وتآلفا وقد ذكره ابو عامر بخير واثنى عليه في حضرة الخليفة وبين مله

---

(١) الاطهارى

(٢) المقرى

من المآثر فى قمع الثورات وتسكين الاضطرابات فى ربوع مراكش مما سبب رجوعه مكرماً محترماً الى قرطبة رغم اعتراض المصحفى وإصراره فى ذلك

ظهرت لأبى عامر فى هذه الرحلة خدمات جليلة دلت على اخلاصه لأمته وحببته من نفوس مواطنيه الذين عرفوا له فضل هذه الخدمات والمساعى وقد ظل يراسل الاميرة طول غيابه فى مراكش ويخلد ذكراه فى نفسها بالهدايا النفيسة (١) والذكريات المعنوية الجميلة مما جعلها تظن فى أنها تشغل مكانا سامياً من مخيلته، فلم تطق صبراً على بعاده وكان أهل القصر يواصلون سعيهم ويكررون أمنيتهم فى عودة محبوبهم الظريف . وحدث اذذاك أن ولى عهد السلطنة توفى وخلفه هشام فى ولايه العهد واحتاج الامر الى من يدير حركة ضياعه وتدبير شؤون أمواله فأشارت الأميرة باستدعاء أبى عامر لالقاء ادارتها الى عهدته وفي سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين هجرية عاد أبوعامر الى قرطبة بعد ان لهجت الالسنة بأفول شمسه وسقوط شأنه ودخلها ظافراً شامخ الرأس، حيث عهد اليه بادارة ضياع ولى العهد وبتولى ادارة الشرطة والدرك .

---

(١) دوزي

الفصل الخامس

في العام الخامس والستين بعد الثلاثمائة مرض الخليفة الحكم واشتدت عليه وطأة المرض حتى لزم فراشه ، ولما أيقن من نفسه انه في مرض الموت وانه أصبح من المنية على قاب قوسين أو ادنى اضطرب باله وازداد قلقه لامر واحد : هو أمر ابنه هشام البالغ من العمر اذ ذاك احدي عشر عاما وكانت العادة المتبعة الي عهده في امر الخلافة هو انتقالها بالارث من الارشد الى الارشد غير ان الحكم كان لا يطيق ان يري اخاه المغيرة متقلداً زمامها يوما ما . أضف الى ذلك ان كاهنا تنبأ له بأن الخلافة قد يتزلزل ركنها في بني أمية وتتقوض دعائمها ان لم يتقلدها اولاد من صلبه وهذه النبوءة جملته يعتقد بأنه من اكبر الواجبات عليه نحو أمته اقناعها بقبول خلافة ابنه هشام من بعده

وأخذت زوجته صبيحة بناصره في هذا الامر وعضدته فيما ذهب اليه من وجوب حصر الملك في ذريته من بعده فان فكرة تنحية هشام عن منصب الخلافة هيجت عواطفها وأثارت مافي نفسها من كوامن الذكاء والفطنة فقدحت زناد الفكر أملا في الوصول الي حل مرضى وكانت كلما أمعنت في البحث هالها الامر وأضناها لهيب الفكر . كانت تقول في نفسها : كيف تكون النتيجة اذا

لم يرض الشعب بخلافة هشام وكيف تكون العاقبة اذا ثارت ثائرة الاندلسيين ألا ينتهز أمراء الفرنجة هذه الفرصة لسوق جيوشهم على قرطبة وكيف تكون حالتها هي اذا لم يصبح ابنها الخليفة ؟ ألا تكون فى هذه الحالة كمية مهملة مقضياً عليها بالانقراض والتلاشى ؟

كانت قد يئست من شفاء زوجها وأيقنت بأن كل يوم يمضى يدنيه من حافة القبر ، ولذا شعرت بوجوب الاسراع فى التدبير واعمال الرأى لايجاد طريقة تحل هذه العقدة وما زالت تفكر وتقلب الرأى على وجوهه حتى توصلت أخيراً الى رأى صائب أوحت به الى الخليفة فسارع الى تنفيذه فى الحال. وفي غرة جمادى الاولى من سنة ثلاثمائة وخمس وستين هجرية انعقد مجلس كبير (١) ضم كل من فى الاندلس من الاشراف والاعيان وأصحاب الكلمة العليا وذوى الحيثيات حيث قرأ الخليفة عليهم اقراراً بقبولهم تولي هشام للخلافة من بعده للتوقيع عليه ممن حضر ذلك المجلس .

لم يجبرهم الخليفة على توقيع الاقرار ولم يستعمل نفوذه أو تأثيره للضغط على حريتهم فى قبول التوقيع ، غير أنهم لم يجدوا من اللياقة عصيان أمر رئيسهم وخليفتهم المحبوب فوقعوه عن رضا نفس وطيب خاطر . وفى تلك الجلسة أمر رئيس الكتاب

---

(١) ابن الزهارى

وكان من مماليك الاميرة بنسخ هـذا الاقرار وأخذ جملة صور منه لتوزيعها فى جهات مختلفة من الاندلس للتوقيع عليها من وجوه البلاد واصحاب الشأن فيها تحت اشراف ابن أبى عامر مأمور الضبط ورئيس شرطة البلاد . وقد ارسلت نسخ متعددة الى جهات اخري غير بلاد الاندلس ، مثل مراكش وافريقيا فكنت ترى عامة الشعب يتسابقون الى توقيعها مع الكبراء والاعيان حباً فى اظهار اخلاصهم وولائهم لخليفتهم

سر الخليفة من نجاح المشروع وقدر عمل زوجته هذا حق قدره أما هى وقد رأت انحلال قواه ودنوه من الموت . فقد بذلت ما فى وسعها ليكون ابن أبى عامر المفتش العام للقصر السلطانى ووصلت الى ما تريد كما كان منتظراً (١)

الآن وقد تم توقيع الاقرار وبدئ بذكر هشام فى خطب الجمعة بعد اسم الخليفة اطمأن بال كل من الحكم وصبيحة الا أن الظروف كانت لاتزال خطيرة ، فان للمغيرة أعوانا ومريدين على أهبة الاستعداد عند ظهور أي حركة تنبئ بسوء التدبير أضف الى ذلك ان أمراء الفرنجة المقيمين فى شمال الاندلس كانوا على ساق وقدم لتعبئة الجيوش واعداد الرجال ، يتربصون سنوح الفرص وقد سمعوا بمرض الخليفة .

(١) المقرى وابن الاثير

أخذت وطأة هذه الاحوال تزداد شدة وازداد تبعاً لها قلق الاميرة فانها كانت تنظر الى المستقبل ، الى يوم وفاة الحكم فترى أفق السياسة ملبداً بالغيوم ، فبدأت بالتدبير والتجهيز استعداداً للطوارئ ، بكل ما فيها من قوة وعزم غير أنها كانت رغم كل وقاية واحتياط لاتدري كيف يكون خروجها من تلك المشاكل . فهناك المغيرة ، أخو الخليفة هل يجب منازلته أو لا ؟ أم الاجدر مجابهة أمراء الفرنجة والاهتمام بما قد يحدث من الموقعين على الاقرار ظاهراً والمتمردين على الحالة باطناً كل هذه أمور خطيرة تستحق النظر والاهتمام ، لاتدرى أية طريقة تتبع للتخلص منها فخصت هذه المشاكل ودققت النظر بمعونة المصحفى وباستمداد الرأى من أبي عامر اتر يب الخطط اللازمة ، وكانت وطأة المرض قد اشتدت على الخليفة ولم يبق لديها امل فى شفائه وما كادت تطلع شمس اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلثمائة وست وستين هجرية حتى فاضت روحه الى بارئها

مات الحكم وقد حكم ستة عشر عاما كلها امان وسلام ، بالغاً من العمر اربعاً وستين عاما ، محبوبا من الشعب مبكياً عليه من اقاربه وأهله لفضله ومكانته بينهم ، تاركا دولته وهشامه وديعة في ايادى زوجته المحبوبة صبيحة وحاجبه الامين المصحفي وكاتبه النشط محمد بن ابي عامر . مات مطمئن البال ، مرتاح الضمير لوثوقه من حسن سياستهم وجميل تدبيرهم ولعلمه بأنه ترك وديعته

لاشخاص اكفاء لا تغمض أعينهم لحظة واحدة عن حفظها ووقايتها من كوارث الدهر ونوازل الزمان

في اللحظة التي توفى فيها الخليفة لم يعلم بوفاته سوى صبيحة والمصحفي وابن أبى عامر ومملوكان يسميان جوهر وفائق اما اهل القصر عدى هؤلاء فكانوا يعتقدون بأنه ما زال في فراش المرض لان صبيحة بذلت ما في وسعها لكتمان الخبر ولعبت دورها بكل اتقان الى ان وفقها الله لتخليص الدولة من اختلال كبير يهدد البلاد . اهتمت اولا بالمملوكين وندبرت معهما امر كتمان الخبر عن الشعب وعن اهل القصر اما المصحفى وابن أبى عامر فكانت واثقة من صداقتهما مطمئنة لاخلاصهما. هنا فى هذه اللحظة ظهرت صبيحة بكل ما فيها من نبوغ ودهاء ، حيث كان مستقبل الاندلس فى يدها وأقل اهمال او خلاف يكفى لانتاج أخطر العواقب ويوقع بيت الزهراء فى يد المغيرة وقرطبة لحكم الحزب المخالف . ثم تقع الاندلس جميعها بعد ذلك فريسة فى يد الاعداء غير أن حسن الحظ خدمها ومكنها من اتمام دورها بأتقان خلد لها شهرة دائمة فى صفحات التاريخ اجل انها جاهدت وكافحت ولكنها انتصرت وتوفقت لتخليص التاج والعرش لابنها هشام وبذا تمكنت من الاحتفاظ بمكانتها ووقاية شوكتها ونفوذها بعد أن كانت من السقوط قاب قوسين اوأدنى

الفصل السادس

كان المملوكان ، فائق وجوهر ، من الجنس السلافى ، يحكمان على الف مملوك آخر فى القصر ومتصفان بالظلم والغدر والعمل لما فيه نكاية أهل الاندلس وكانا يحقدان على المصحفي وهو أيضاً يحقد عليهما، ويعلمان بأن نفوذهما سيذهب أدراج الرياح منذ اليوم الذى يستولى فيه هشام على تاج الخلافة. وعندما علما بموت الحكم خطر ببالهما أمر تآمرا عليه سراً وعقدا النية على تنفيذه فى الحال فاستدعيا الحاجب بدون علم أبى عامر وأفضيا اليه بواقعة الامر وأعلماه بأنهما غير راغبين فى خلافة هشام وطلبا اليه مساعدتهما فى ذلك

أسقط فى يد الحاجب وعلم بأن أقل معارضة توردە حتفه فى مكانه فلم ير بداً من التظاهر بالانحياز اليهما وأنه راض عن خطتهما ثم أفهمهما أنه من صالح العمل تركه في مكانه كحارس بينما هما يذهبان لاخراج الفكرة من حيز القول الى دائرة العمل

كان المصحفى يعلم بأن الاندلسيين الذين لم يذوقوا طعما لحكم الاوصياء بعد ، يصعب عليهم قبول مثل هذه السنة الآن . ان صغر سن هشام حجة قوية فى يد الخصوم لرفض خلافته ، فلا يبعد اذن أن تروج فكرة تنصيب المغيرة للعرش . اضطرب

المصحفى لهذا الامر وأخذ يقلب الامر على وجوهه ليتبين وجهاً للخلاص فعول على أن يستدعى أبا عامر الى تلك البقعه سراً ليتشاور معه فى هذه الكارثة المقبلة ثم التحقت بهما صبيحة عند ما علمت بوجودهما هناك وشاركتهما فى التدبير والتفكير لم تكن هناك الا طريقة واحدة لحل هذه المعضلة ، هو ازالة المغيرة من الطريق حقاً انها الطريقة المثلى ولكن من يقدر على تنفيذها . اتجهت الانظار الى أبى عامر لانه أقدر الثلاثة على اتيان هـذا العمل . اذا قبل أبو عامر تنفيذ ذلك فانه ينقذ صبيحة من أشد الازمات وأحرج المسالك في حياتها بل هناك ما هو أهم من ذلك انه ينتشل ولى العهد من وهدة السقوط وبالاحرى ينتشل الاندلس من أحضان الفوضى والانحلال . انها لفرصة سانحة تجرب بها الاميرة صداقة محسوبها وربيب نعمتها

أمام هذه الظروف وإصرار المصحفى لم يسع أبو عامر الا الاذعان فشمر عن ساعد الجد وذهب تواً الى قصر المغيرة يصحبه العدد اللازم من الجنود الاشداء للقضاء على حياة المغيرة

كان المغيرة شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، الا أنه جبان رعديد ، فما كاد يرى وجه أبى عامر ويده على قبضة السيف حتى قال له ونبرات صوته تدل على الخوف والاستسلام « انى طوع ارادتكم فافعلوا بى ما شئتم » فأخبره أبو عامر بوفاة

أخيه الحكم وبتنصيب هشام ابن أخيه للخلافة فأجاب : « انني أقسمت سابقاً على مبايعته أطال الله بقاءه »

حركت هـذه الحالة عاطفة الشفقة فى نفس أبى عامر وجعلته يمسك عن قتله ، حتى أنه خرج الى ناحية من القصر وكتب الى المصحفي رسالة يخبره فيها بعدم موافقته على الامر المتفق وأرسل الرسالة مع رسول خاص فلما قرأ المصحفي رسالته اضطرب لان المجال كان لا يتسع لاظهار مثل هذا التألم والاشفاق فكتب اليه فى الحال يقول : « انك بمثل هذا التردد توقعنا في ورطة أشد مما نتحملها الآن فهل أنت عازم على خيانتنا أيضاً ؟

وصل الكتاب الى أبى عامر مع الرسول نفسه فأنعم نظره فى الامر وقد جاشت عواطفه ولم يتمكن من اسكات ثائرة الشفقة القائمة بين جوانحه الا أنه مع ذلك لم ير بداً من اصدار الامر الى جنوده بالاجهاز عليه فانقضوا عليه وكتموا أنفاسه ثم واروا جثته فى احدى زوايا القصر

***

علم المصحفى بتنفيذ المشروع فسر فى نفسه وأبدى ارتياحه اما الاميرة فكان سرورها اشد وكان يلوح عليها مظاهر الامتنان والشكر لهذا العمل الذى كان سبباً فى زيادة تعلقها به

اذيع بعد ذلك خبر موت الخليفة وتقلد هشام منصب

الخلافة مكان ابيه فى اليوم الثانى كما كان مقرراً وبايعه الناس فى حفلة عظيمة سمى فيها بلقب (المؤيد بالله) وهو اذ ذاك لم يتم الحادية عشرة من عمره ، وقدم كذلك المملوكان ، فائق وجوهر ، طاعتهما للخليفة ومن ثم اختفى هشام عن العيان فى احدى زوايا القصر مع مربيه الذى عهد اليه في أمر تربيته

تم الامر كما أرادت صبيحة وكما شاء ابن أبي عامر والمصحفي وظهرت الاميرة على مسرح الحكم علنا (١) اذ كانت الآن تحكم باسم الخليفة ابنها ، لانها أصبحت الوصية عليه فكان اليوم يومها والزمان زمانها، كانت الحاكمة المدبرة لكل أمر منذ عشر سنوات الا أنها كانت تحكم من وراء ستار وكان لها نفوذ واسع ولكنه نفوذ عارعن الصبغة الشرعية أما الآن فقد استكملت نفوذها وظهرت بمظهر الوصية ، صاحبة الامر والنهى

أخذت في دورها العملى تنظر فى قرارات المجلس الاعلى وتبحث عن الوسائل المؤدية لاستتباب الامن في ربوع الاندلس وكان من أول أعمالها تخفيض الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الاهالى مما جعلها محبوبة لدى الشعب مرعية الجانب لدى الخواص لان رجال الدولة لم يقع اختيارهم عليها كوصية عبثاً بل لانها كانت مشهورة بينهم بذكائها ، معروفة لديهم بحسن درايتها فى سياسة البلاد (٢)

---

(١) قاموس الاعلام (٢) تاريخ الاندلس امنيا باشا

كتب التاريخ المصورة لتلك الايام مشحونة بذكر سجاياها وسرد فضائلها ومزاياها أما شعراء عهدها فقد نظموا لها عقود مدح سارت بذكرها الركبان وشبهوها بالنجوم وأعلوا قدرها الى السماكين حتى طبقت شهرتها كل ربوع الاندلس

كل شيء في تاريخ حياتها جميل ظريف، سوى أمر واحد يؤسف له جد الاسف، هو عدم كتابة خواطرها في مذكرات تعبر عما كان يخالجها من المشاعر والاحساسات في الظروف المختلفة التي تقلبت أثناءها. لو كتبت مثل هذه الخواطر فمن يدري أي الاساليب الشعرية الخالدة وأي المعاني السامية الخلابة كنا نجده فيها. كنا نجد لذة في تصفح حياة تلك الاميرة وهي تروض النفس في حدائق قصر الزهراء وتفكر في ماضيها. هل كانت تتأثر الان بذكر لياليها الغرامية التي قضتها مع الحكم في نفس ذلك المكان !!

هل تذكر الآن أيام شبابها وتلك السويعات السعيدة التي كانت تشعر فيها بمحبة الحكم لها؟ وهل لتلك الاويقات أثر في نفسها أو هي نسيت حتى الايام التي كانت فيها تتغنى بين تلك الخمائل والافنان؟

لوكانت لها مذكرات لكنا علمنا في أي مركز احساسها الآن أوكنا علمنا فيما تفكر وهي تمر في طرقات تلك الحدائق.

هل كانت أفكارها معطوفة الى المستقبل أو انها تحترم الماضي أيضا فتلتفت اليه من حين لآخر ؟ من يمكنه ادراك مافي خفايا هذه المرأة المتعلمة القادرة ومن يعلم وجهة افكارها الآن ؟ ربما كانت تحسب ضحاياها وربما كانت تتأمل في حسن طالعها وربما كانت الآن تقلب صفحات حياتها الصفحة بعد الاخرى بلا قيد ولا روية

يحفظ لنا التاريخ أنها بعد الفراغ من أعمالها السياسية كانت تجلس على مقربة من بركة مزخرفة وسط الحديقة لاستنشاق نسيم المساء المعطر بروائح الزهور والرياحين ،في ذلك الوقت الذي يطير فيه المرء سابحاً في عالم الخيالات ، في عالم اثيري بعيد عن ماديات هذا العالم الارضى

كم يشتاق الانسان الى معرفة تصوراتها وما يدور بخلدها في تلك اللحظات اللذيذة القصيرة !! هل كانت أفكارها موجهة الى ابنها وأمر تربيته او انها كانت تفكر في أمر الحياة لتعرف حقيقتها فتقول في نفسها : ان هي الا رؤيا نرى فيها الحقيقة في ثوب الخيال والخيال في لباس الحقيقة أو أن تصوراتها تنحدر بها في تلك اللحظة الي مظاهر الوجاهة وآثار النعيم والترف التي تقلبت في أحضانها منذ الساعة التي كانت تغنت فيها بين خمائل الحديقة؟ أو أنها تحصي الحوادث والصدمات التي تحملتها منذ ستة عشر عاما ؟

كلا كلا انها فى تلك الجلسات بجانب البركة، كانت تنظر الى النجوم اللامعة فى صفحة السماء لتقارن بينها وبين القصائد التى نظمت فى مدحها والتشبيهات التى قيلت من أجلها، وربما كانت لا تفكر لا فى شيء واحد ولا يشغل ذهنها الا أمر واحد هو غرامها وهيامها بأبى عامر....

آه من يدرى ذلك كل هذه أسئلة لا يمكن الاجابة عنها وستبقى سراً غامضاً الى الابد

لم أجد فى أى كتاب حبا يشابه حب صبيحة ولا نفسية كنفسيتها

وقد علمت بالبحث والتنقيب أن أبا عامر كان روحها وحياتها ولكننى بكل أسف عجزت عن وصف تصوراتها وافكارها فى تلك الساعات القصيرة التي كانت تتنزه فيها فى حدائق بيت الزهراء

الفصل الرابع

قدم المملوكان فروض الطاعة ورضخا لحكم الزمان مؤقتاً، الا انهما لم ينسيا قتل المغيرة ومدبرى تلك المؤامرة ولذلك لم ينفكا عن تحريك الفتنة واذكاء نارها الخامدة كلما استطاعا الى ذلك سبيلا. اندفعا في هـذا السبيل حباً في الانتقام من المصحفى وابن أبي عامر وأوشكت ثمار اعمالهما تنضج، فان الشعب بدأ يشكو من احتجاب الخليفة عنه وأخذ الناس في مجامعهم يتحدثون عن صغر سنه وقد كان لهم بعض العذر في التذمر لانهم في عهد عبد الرحمن وابنه الحكم اعتادوا أن يروا خليفتهم من وقت لآخر أما هشام فقد بقى متزويا في حجرات القصر منذ يوم المبايعة

اغتبط لهذه النتيجة مدبروها وقلقت لها صبيحة، التى كانت تراقب مجرى الحوادث بعين يقظة، فاستدعت المصحفى وابن أبى عامر وطلبت منهما ابداء الرأي فى هذه الصدد ة فقر رأيهما على اخراج الخليفة لشعبه وفعلا ظهر هشام للاندلسيين في حفلة عظيمة جمعت كل دواعى الهيبة والعظمة وكان ممتطياً جواده وعلى يمينه حاجبه المصحفى وعلى يساره ابن أبى عامر وقد زاد أبهة المهرجان اشتراك فرق عديدة من الجنود فى الموكب وفى نفس هذا

اليوم ألغيت إحدي الضرائب (ضريبة السمن) عن كاهل الاندلسيين فهلل القرطبيون لرؤية خليفتهم وكبروا وقد ازدادو محبة له والتفافا حول عرشه

لم يفت ذلك فى عضد المملوكين بل أغراهما على التمادى فى إشعال نار الفتن وقد أدت بهما الجرأة إلى نصب حبائل مكيدة داخل القصر ، كانت سبباً فى فضيحتهما ونفيهما الى الجزيرة . أما أعوانهما واتباعهما فقد نالوا الجزاء الصارم من أبى عامر . وبينما كانت الاحوال فى داخل البلاد على هذا الوجه كان أمراء الفرنجة فى الخارج قد اشتدت قوتهم وتعددت منهم حوادث النهب في البلاد الآمنة فقلقت صبيحة لهذه الحالة لعلمها أن قيام هؤلاء الاقيال دفعة واحدة بعد سكونهم مدة طويلة منذ عهد الحكم ينذر بقرب وقوع حروب شديدة بينها وبينهم فأمعنت الفكر فى ذلك واستمدت كعادتها برأى الحاجب وصنيعتها أبي عامر فأشارا عليها بعرض الامر على وجوه الامة وأعيانها فجمعتهم فى مجلس عام وطرحت المسألة على بساط البحث والتدقيق وكان رأي سوادهم فصل المشكلة بحد السيف وقد خطبهم ابن عامر خطبة بليغة شرح فيها الاسباب الموجبه لشن الغارة على الاعداء وتأديبهم قبل استفحال الامر ، فاستهوت الخطبه ألبابهم ولم يبق فى المجلس نفر على غير رأيه غير انهم لفتوا

نظره الى نفقات الحملة وما تستدعيه من المصاريف ، فطلب منهم بيانا بجملتها فلم يحر أحدهم جوابا عند ذلك أجابهم بأنها ربما بلغت مائة الف دينار تقريبا ، فرد عليه أحد الحاضرين مستعظما ذلك فأجابه على الفور : (خذ إذا شئت مائتي الف وتول قيادة الحملة وخفف عن عاتقى هذه المسئولية) فأفحمت هذه الكلمات قول المعترض . وبعد أن وصل المجلس الى هذا الحد أخذ يفكر فى تعيين من يعهد اليه بقيادة الجيش وكانت هذه مشكلة جديرة بالبحث حيث لم يقبل أحد من الحاضرين أن يتولى مثل هذه المأمورية الا أن أبا عامر فض الاشكال بأن قبل القيام بذلك على شرط أن يدفع اليه مقدار النفقات وأن تكون له الحرية (١) فى انتخاب رؤساء الجيش . فرضى الحاضرون وباركته صبيحة ولم تمالك من المجاهرة بأنها تؤمل النجاح فى مهمته وأنها مطمئنة على سلامة الدولة ما دام يعضدها فى ادارة الملك والدفاع عن حقوق السلطنة أمثاله من الرجال العاملين فرد عليها شاكراً حسن ظنها وقد ضمن كلامه بعض التلميح فى ضعف سياسة المصحفي ولين جانبها ازاء هذه الصعاب فلم تجبه صبيحة الا أنه فهم ما لكلامه من الأثر في نفسها

تحرك جيش الاندلسيين وعلى رأسه ابن أبى عامر حتى تقابل

---

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

بأمراء الفرنجة والتحم بجيوشهم فى معارك شديدة انجلت عن هزيمة الاعداء وانتصار المسلمين واستيلائهم على بعض المدن عدا الاسلاب الوافرة والغنائم الكثيرة ، وبعد حروب دامت خمسين يوما عاد ابن أبي عامر الى قرطبة مقر الملك، منصورا غانما ، تحف به رايات الفوز والظفر (١) لقد برهن على دراية تامة فى قيادة الجيوش وأظهر صفاته الحربية المغروسة فى نفسه ومواهب الفروسية الموروثة عن آبائه فأحبته الجنود ودهش من أمره من كان يظنه على جهل بأمور الحرب وقد أعد القرطبيون لاستقباله يوما مشهودا وكان فى مقدمة المحتفلين بقدومه الاميرة وابنها الخليفة هشام وقد أغرقاه بطوفان من الانعامات وحسن الاستقبال وكان هو كعادته في كل الامور البطل الموفق ، مظهر احترام الاعيان والاشراف ومعقد آمال أهل القصر ورمز أماني العامة وطبقة الشعب ، وقد أجمع الكل على تسميته بالمنصور ، اعزازاً له واكباراً لشأنه ، واعترافا بخدمته فى تلك الحروب

أصبح الآن لايحفل كثيرا بالمصحفى . وعلاقاته بالخليفة رسمية محضة ، لعدم بلوغه سن الرشد أما صبيحة فخدث عن منزلته لديها ولا حرج فهل يوجد فى العالم مخلوق أسعد من المنصور ؟

ها قد تحققت آماله الذهبية الواحدة تلو الاخري بقوة

(١) دوزى

ساحرة وهالم يعض على حديثه مع رفقائه فى الجامعة أمد كبير حتى نال ماتمنى . ها هو الآن اكبر رجل فى قرطبة وهاهى الانظار موجهة اليه وها هو التاريخ خص له فى طياته صحيفه بيضاء لتدوين أعماله المجيدة ، ان الآمال التي كان يتصورها والمشاريع التى كان يرسمها وهو جالس فى حانوته الصغير بميدان قرطبة امام القصر قد تحققت جميعها . ذكر ذات يوم لاصدقائه بأنه سيكون حاكم الاندلس الفذ وها هو الآن الحاكم الحقيقي للاندلس ومن اكبر رجالات العالم الاسلامى

الفصل الثامن

استفحل نفوذ المنصور وارتفعت كلمته فى شئون الادارة والسياسة(١) وبنى له قصراً فخما بجوار قرطبة بل قل مدينته الصغيرة التى سماها (الظاهرة) فنقل مأمور والدولة مساكنهم بجوارها وأسس التجار والباعة أماكن لهم على مقربة منها حتى أصبحت تضارع فى شهرتها بيت الزهراء

كانت الظاهرة محاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزاهرة والأحواض الجميلة وبها من دواعى الأنس وموجبات السرور مايشهد لمنسقها بالذوق وكم شهدت هذه المدينة من ولائم المنصور واحتفالاته العظيمة ، تلك الاعراس التى بهرت أنظار الاندلسيين وأوقعتهم فى دهشة من مظاهر تلك الرفاهة !!

هل كان المنصور ، وقد وصل الى هذه المكانة وارتفع الى تلك الغاية التي ليست وراءها غاية يحب صبيحة وهو فى حالته هذه ؛ أم أن مايجيش بصدره من الاحساس لها هو أثر من آثار الشكر والامتنان لحسن صنيعها معه ؟

كانت الاميرة صبيحه تحبه وتقدس ذاته الى درجة الهيام ولكن هل كان لشعورها هذا رجع صدي وهل كان محمد المنصور

---

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

يخصها بحبه تكافئ هذا الحب ؟

إننى استناداعلى اعماله وعلى ما أظهره بعد تمكنه من إدارة الاندلس أقول : انه لايحبها !... وإنما كان يحترمها ويظهر لها دلائل المودة والاعتبار ، لانها سبب نعمته ومنشأ رقيه واليها يرجع الفضل فى السعادة التى يرفل فى بحبوحتها الآن

قد ظهر الآن أمامها بثوبه الحقيقي وأصبح يأنف من رؤية يدها - تلك اليد التى طالما قبلها بأعزاز وتقديس - تشترك معه فى الحكم منذ أصبح يشعر بأنه في غنى عن حياتها ، نعم كان يتوق الى رؤية الاوامر غفلا من اسمها ليس عليها الا كلمة المنصور غير أنه لم يستطع أن يرفع لواء عصيانه دفعة واحدة فظل محافظا على سابق مودته لها ، يكلمها بلسانه العذب ويعاملها بلطفه المعهود ولا يقصر فى أمر يكون فيه راحتها ، وهو هو فى كل أطواره وحركاته التابع الامين والخادم المخلص للعرش والخلافه .

عرضت عليه ذات يوم جارية ليشتريها وكان نخاسها قد لقنها بعض أبيات وأمرها بأنشادها بين يديه

دخلت الجارية قصر المنصور وهناك فى حضرته امام جمع حافل من جلسائه غنت تلك الابيات بصوت رخيم ، فاسترعت الاغنية مسامعه وأخذ يصغى اليها باهتمام زائد وهو يرجف من غضبه وما كادت تتم الانشاد حتى هجم عليها شاهرا سيفه والقاها على

الارض تتضرج بدمائها (١)

لماذا — لان الجارية نطقت بأبيات مضمونها التلميح بعلاقته مع صبيحة فلم يحتمل ان يرى اسم الاميرة مضغة في افواه الناس فأنزل العقاب بمن تجرأ على تلويث ذلك الاسم أمامه وأمر بجمع واحراق ماقيل في حقها من الهجاء ومجازاة قائليها بشدة دلت على مكانة الاميرة من نفسه

كان لا يشغل باله فى هذه الفترة الا أمر واحد أقلقه غاية القلق، هو استكانة المصحفى وظهوره بمظهر الضعف أراد ان يتخلص منه لان حاجب البلاد ترك مصالح الامة ليلتفت الى مصالحه الشخصية وكان المنصور يظهر هذا الامر لصبيحة ويشير اليه من طرف خفى وكانت هي كلما أمعنت النظر فى احوال المصحفي ازدادت وثوقا بصدق أقوال المنصور الذى كان يجتهد باعلاء شخص آخر بنسبة اجتهاده في اسقاط الحاجب ، هذا الشخص هو القائد غالب وقد تمكن أخيراً بمعونة المنصور وحسن وضايته ان ينال رتبة الوزارتين (٢)

بعد هذا وضع المنصور يده فى يد غالب واخترقا حدود المملكة فى سبيل شن الغارة على اعداء البلاد ، حيث كان أمله

---

(١) ابن الاطهارى

(٢) ابن خلكان

الوحيد جعل اسبانيا جميعها فى قبضة يده (١) وسرعان ما تكللت أعمالهما بالنجاح، وأعقب غزوتهما هذه غزوات أخرى عقد للمنصور فى جميعها رايات الظفر ، حتى أصبح شخصه طلسم النصر لجيوش المسلمين لا يشن على الاعداء غارة الا يعود منها غانما رابحا .

واذهما منهمكان فى خوض غمار الحروب واعلاء شأن الاندلس خارجا ، كانت صبيحة تدبر شئون البلاد وتشيد ما يخلد ذكرها في التاريخ (٢) أما المصحفى فلم يبق له بعد ذلك أدنى نفوذ وأصبح يشعر متألما بأفول نجمه وادبار طالعه لقد انفض من حوله الناس ولم يبق من يعضده من الامراء (٣) والكبراء وقد آذى الكثيرين منهم بغروره وكبريائه أيام أن كانت له الدنيا ومع ذلك عز عليه ان يترك مركزه بسهولة وانقياد فأراد أن يجرب حظه ويقامر بآخر جهوده ، علم شأن غالب فأراد أن يتقرب اليه بأن يزوج ابنته اسماء من ابنه عثمان وما كاد يخطر فى باله هذا المشروع حتى كتب اليه في الحال يعرض عليه ذلك

فكر غالب فى الامر مليا وقلبه على وجوه كثيرة ، وفي النهايه اقتنع بنفع هذا الزواج فكتب اليه يخبره بالقبول ففرح

(١) تاريخ الاندلس

(٢) تاريخ الاندلس لضياء باشا

(٣) دوزى

المصحفى بذلك وقد كاد يطير من شدة مانالة من السرور وشاع خبر هذه الخطبة وذاع ، حتى وصل أسماع المنصور ، فلم يشأ ان يصدق بادىء ذى بدء الا انه عند ماتحقق صحتها استشاط غضبا والتجأ الى كل باب من الابواب التى رآها مؤدية الى منع هذا الزواج وكان منه أن استدعى غالب ووسوس اليه بالضرر العائد عليه من أمر الخطبة وان زواج ابنته من مثل عثمان لايولد شرفا ولايكسبه فخرا لان المصحفي لاينتسب الى بيت حسب ونسب فاحتار غالب فى أمره ولم يجد لنفسه مخرجا من ذلك المأزق . لم تكن حفلة الزفاف قد جرت بعد ، الا أن الخطوبة كانت قد تمت فماذا يفعل الآن ولقد ندم ولا ندامة الكسعي ؟ ولكن لات حين مندم !. فما كاد المنصور يرى منه ذلك حتي أضرم فى نفسه مايذكى نيران ندمه بقوله : « ان ابنتك جديرة بمثلى فهل تقبل أن تزوجها منى ؟ »

أدهشه هذا التصريح لانه ما كان يعتقد بنوال مثل ذلك الشرف ، فقبل مسرورا أن تزف ابنته الى أكبر رجل تعرفه الاندلس ، أما المنصور فكان فرحا فى سره لتمكنه من احباط خطة منافسه المصحفى ، فأصبح بعد ذلك من أسهل الامور عليه عزله من منصبه لاسيما وقد كانت أغلاطه ظهرت لصبيحة ، فتم له ما أراد وزاد من نكايته له رجوع غالب عن كلمته ورفضه زواج

اسماء من ابنه عثمان .

ارتقى المنصور الى درجة حاجب ، أى وزير الوزراء ، كما كان المنتظر !! فيكون قد وصل الدرجة الاخيرة من عرش آماله الذهبية وجلس مفتخراً على أريكتها العلياء ، ولقد أصبح بعد تلك الحادثة معكس أنظار العالم الاسلامى فى جميع الاقطار اذ كان رقيه سريعا ، مدهشا لدرجة انه هو نفسه كان فى حيرة من أمر هذه السعادة وحسن ذلك الطالع .

أرأيت أيها القارئ كيف يكون سحر الحب وفعله العجيب !.

الحب هو الذى خلق هذه المعجزة والحب هو الذى أخذ بيد كاتب صغير لم تحنكه التجارب الى ذروة المجد وسنام العظمة .

المحتكون بالمنصور ، الحائمون حوله ، ذهلوا من رقيه السريع بينما كانت صبيحة تبارك نفسها لاتحافها الاندلس بنابغة قل أن تجود الاجيال بمثله (١)

مصاهرة المنصور لقائد مثل غالب ، صاحب المنزلة الكبيرة في نفوس القبائل القاطنة مراكش وشمال افريقية ، أمر ارتاح اليه جد الارتياح ، حيث كان يطمع فى مد نفوذه وشهرته حتى تلك الاصقاع فكم سهر الليالى وهو يذهب بتصوراته الى تلك البلاد ويبنى القصور والعلالى لادارتها وتسخيرها الحكمه كما يريد ويشاء فها هي الان فى مقدوره ومتناول يده

(١) دوزى

لندع المنصور جانباً بين آماله وأمانيه ونفكر قليلا فى حالة صبيحة الروحية فى تلك الفترة ؛ فالى أى حد وصلت تصوراتها ياترى ؟ وكيف قابلت تلك الصدمة ، صدمة زواج حبيبها وأعز مخلوق لديها بامرأة أخرى وكيف رضيت هى بمثل هذا الامر وأمكنها اسكات النزاع القائم في نفسها وامتلاك شعورها والتوقيع على عقد النكاح بيدها ودعوة غالب وابنته الى قرطبة ومقابلتهما بحفاوة وسرور

لم يكن فى مقدورها تدبير أمر يعكس هـذه الحالة لانها لم تستطع أن تجري مع عواطفها . لقد منعها مركزها السامى من اظهار ما فى نفسها من الآلام والامال . ان سمو مقامها وقف فى سبيل منع المنصور من مثل هـذا الأمر المؤلم ، فلم تر بداً من الاستسلام لحكم الاقدار ومقابلة الضربة بشجاعة وثبات ـ لقد أبدت شجاعة تفوق حد التصور والادراك فى كتم عواطفها ، وظهرت بمظهر الرزانة الجديرة بملكة جليلة القدر عظيمة الشأن فأشرفت بنفسها على حفلة الزفاف التى دفع الخليفة جميع نفقاتها . قد يكون فى نفسها بقية من الأمل ولم لا ؟ ألم يكن الغرض من هذا الزواج سياسيا ؟ ان الزواج المبنى على غرض مخصوص يكون ذا أساس واه لا يبشر بدوام البقاء والخلود . كان الغرض من هذا الزواج أن يكون سهام تحقير مسددة الى صدر المصحفى ، فليس فى

الأمر ما يوجب القلق.

بمثل هذه الآمال كانت صبيحة تملل النفس الى أن تم الامر وزفت أسماء الى المنصور، حبيب الاميرة وأقرب الناس الى نفسها، فى العام السابع والستين بعد الثلاثمائة من الهجرة النبوية

كانت الحفلة من أحسن حفلات الاندلس فى التاريخ، وذات أبهة ملوكية قل أن يسمح الزمان بمثلها، وقد زاد من بهائها أن الاميرة نفسها كانت زينتها وبهجتها. أما موكب العروس فحدث عن فخامته ولا حرج. تقاطر الناس لرؤيته من كل صوب وناحية مدهوشين من عظمته وجلاله. ولقد شاءت الاقدار أن يكون ختام العرس السياسى مقرونا باليمن والسعادة فقد كانت العروس ذات جمال نادر، على جانب عظيم من الظرف والكياسة والادب فافتتن المنصور بها وملأت نفسه بملاحتها الروحية، حتى أصبح لا يرى غيرها من النساء ولا يصبر عنها ساعة واحدة. لقد أحبها محبة غير محدودة، حباً يماثل غرام صبيحة له فتصور حالة الاميرة الروحية اذ ذاك وهى منعزلة فى بيت الزهراء، تقاسى مرارة الهجران؟..

لم تكن صبيحة اذ ذاك في نضارة الشباب. لقد انقضى موسم الأمانى العذبة وفات أوان الاسترسال في التأمل والتخيل. لقد انطفأت شعلة آمالها ولم يبق لديها مايذكى نيرانها، فليس أمامها الا رماد من اليأس. لقد أنزلت بمحض اختيارها الستار

على رؤيا غرامها ، واضطرت أن تفتح عينها فى نور الحقيقة المؤلمة ؟ ...

ولكن بعد هذا ما ذاهي فاعلة ؟ وما الذي تستطيعه وبأى الألوان تصبغ حياتها الآن ؟ هل تنزل الى حدائق قصرها وترمى بنفسها في أحضان الورود والزنابق والياسمين لتجد التسلية فى مناظرها وما يتصاعد من شذاها وعبيرها ؟ انها الآن فى خريف العمر ومن كان في مثل سنها لاتسليه هذه الاشياء . ان هى الا امرأة بائسة كسيرة الخاطر ، انتهى غرامها على غير ما تشتهي ، ولكن قد حم القضاء ووقعت الواقعة فتزلزل بنيان عشقها وانهار ، فهى الآن تشاهد بين الأنات والاهات أنقاض ما تخرب من احساسها وتنظر وعيناها مملوءتان بالدموع فى القطع المبعثرة من آمالها المحطمة ، فتشفق على نفسها عند ما ترى الاجنحة الدامية من خيالاتها السابقة ترفرف حائرة على تلك الخرائب

كان تقهقرها مدهشاً فيالهول الهزيمة !! ما أقرب الاتصال بين نقطتى الفوز والاندحار !! ليست السعادة اذن الا غشاء واهي الجدران ، مؤسسة دعائمه على شفا هاوية عميقة ولكن ماالفائدة ؟ كل هذه ملاحظات ترد الخاطر بعد فوات الوقت وضياع الفرصة ...

* * *

تحملت صبيحة ما أصابها وتلقت الضربة بشجاعة نادرة ولكنها بذات فى سبيل ذلك ثمنا غاليا ، هى دموع القلب التى كانت تسكبها وهى جالسة على عرش الحكم والادارة . بالله كم كانت اناشيدها التى ترنمت بها فى ليالى الصيف مؤثرة حزينة ذات نغمة محرقة ؟ لاريب انها بعد الانتهاء من أناشيدها كانت تفتح غرفتها ترحب بالنسيم وربما ألقت فى مسامعه مايخفف من لوعة قلبها

فان الصبا ريح اذا ماتنفست * على كبد حراء قلت همومها

من لنا الآن بمعرفة كلماتها في تلك الساعات التي كانت تخلو فيها الى النجوى ولكن هيهات قد أطارت نسمات الاندلس تلك الكلمات وقذفت بها الى أعماق اللانهاية

الفصل التاسع

أخذ المنصور يمهد على مهل سبيل حصر النفوذ في يده فأبعد الذين توسم فيهم روح التمرد والعصيان ومجابهة ما كان يتصوره من الآمال والاحلام ، ونفاهم من قرطبة مركز الحكم والخلافة حتي لايكون بينه وبين مايرمى اليه حاجز أو عقبة ، فضرب بيد من حديد أولئك الذين أرادوا الدخول فى شئون الادارة واحداث القلاقل والاضطرابات حول عرش سلطانه المطلق

كان لا يقبل نصيحة انسان ويفهم الذين حوله بكل حركاته وأطواره أنه فى غنى عنهم وعن مشورتهم ومايقدمونه من مناصرة ومعاضدة

أصبح الآن يتضايق حتى من نفوذ حماه القائد غالب وقد تمكن أيضا من ابعاده كما أبعد الصحفي من قبل

هنا في هذا الموقف لم يبق بينه وبين أن يعيش حر التصرف كما يشاء ويهوى الاظل شخص واحد ، ذلك الظل هو الاميرة صبيحة

نعم أصبح لا يهتم كثيراً بمالها من نفوذ ولا يعبأ بسيطرتها ، ففكر في أن يتخلص من نفوذ هذ الظل أيضا وسعى باحثاً عن الوسائل المؤدية لدفعه دفعاً حثيثاً الى أن توفق الى هذه الغاية

أيضا وتكللت مساعيه بالنجاح

انه كان مضطراً الى التظاهر بالاحترام والخضوع لولية نعمته ولكن نظرات الاميرة كانت تتخلل ماوراء هذه المظاهر من حقيقة مؤلمة فتشعر بما يخالف هذا الاحترام من فتور واضح . قضى الامر فليس ثمت داع لاعادة الماضي بذكرياته العذبة وخواطره اللذيذة أمام أبهة الحاضر !...

لم يكن المنصور من أولئك الذين يتأثرون بالذكريات الماضية من أيام صباهم وأزمان لهوهم ان الوقائع لتمر به تاركة أثراً خفيفاً فى حياته . انها لأسطر مكتوبة على الرمال تعبث بنظامها أخف الرياح هبوبا فلذلك أمر بأن يقرأ اسمه فى خطب الجمعة مع اسم الخليفة ، غير مكترث لنقد الناس وما تلوكه ألسنتهم

صار الناس يقرأون اسمه على النقود ويشاهدون توقيعه فى ذيل الأوامر والقرارات

ولكن ألم يعمل على راحة الشعب وطمأنينته ؟ أليس هو الساعى فى نصب ميزان العدل فى ربوع الاندلس فلانستكثر عليه اذن طموحه الى لقب (الملك الكريم) بعد أن كان حاجباً

الأمة لاتنسى خدماته ومآثره فلا تستغرب سكوتها الآن ازاء هذه المظاهر الجديدة ، أما الخليفة هشام فكان فى هذا الوقت العصيب منزويا فى مجاهل القصر ، بعيداً عن أضواء السياسة

وضجيج الادارة ، منقاداً لهواه مخرباً أيام شبابه بلا نفع ولا جدوى . قد تمر عليه فترات يحلوله فيها التجرد عن الماديات والغوص فى لجج الروحانيات فيزهد رؤية الناس كثيراً وينكمش منزويا لمدة طويلة . هذا هو الخليفة هشام ابن صبيحة ، وعلى هذا الطراز كان يقضى أيام حياته

قال مربيه : (ظهرت عليه فى صغره علائم الذكاء والفطنة) الا أن تربيته التى تلقاها منذ وفاة أبيه لم تكن كافيه لانضاج مداركه واكمال مواهبه فظل ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن الثالث خاملا وعاش عاجزا جبانا متردداً عاريا عن العزم والادارة ، أقل الملوك شأناً فى أسرة بنى أمية

هـذه الاخلاق الضعيفة ، حركت عوامل الطمع فى نفس المنصور وحدت به الى الطموح نحو العرش وجعلته يعزم على ارتقائه العرش فى بيت الزهراء بدلا من هشام كان (الملك الكريم) فأراد أن يكون الخليفة

اختلف المؤرخون فى هذا الامر لأن معظمهم يقول بقيام هذا الامل فى نفس المنصور وأنه سعي جهده لاخراج مشروعه من دائرة الفكر الى حيز العمل ولولا خشيته من النتائج لتم له ما أراد

اهتم أولا أن يكون الخليفة منسياً من شعبه دون أن يزعزع أركان الخلافة فسعي فى أن يقلل خروج الخليفة من قصره

وكانت الظروف فى جانبه لان هشاما كان لايراه الناس فى الجامع الاقليلا واذا خرج من قصر لآخر متنزها خرج وهو ملتف بالبرنس فكان يرى بعين الخيال وهو مسرور مشرح الفؤاد أن آماله ستتحقق بلا اضطراب ولا شغف

فهمت صبيحة مراميه وشعرت بأغراضه ومقاصده فأرادت أن تراقبه من على كثب ولم تطق بعد ذلك استبداده ولم تستطع صبراً على رؤية العرش مهدداً فزجت بنفسها فى الميدان لتحافظ على كيان ابنها وتنقذ عرشه

بذلت كل مافى نفسها من جهد وعزم ، الا أنه لم يكن فى يدها الآن شئ من القوة

وقد شعرت بهذه الحقيقة عندما تقدمت الى الميدان ورأت أن رجال المنصور وأعوانه شاغلون أهم المناصب فى أقلام الحكومة وادارتها وفي كل ركن من أركان الادارة حتى فى قصرها بيت الزهراء

كانت تهم فيصادفها ألف عقبة وعقبة ، تتقدم خطوة الى الامام فتقابلها عثرات وموانع . لم تكن مالكة لاستقلالها ، لقد كبلها المنصور بخيوط دقيقة تخفى على الناظرين ولكنها خيوط قوية يصعب الافلات منها، فصبرت حتى اشتدت عزيمتها وقام فى أعماق نفسها دافع يسوقها الى رفع لواء التمرد والعصيان اذ كانت تقول في سرها ما هذه الجرأة ومن أين لابى عامر كل هذا النفوذ أين

كنت انا وكيف أرى ذلك بنفسي آه ان الرجال الشاغلين للوظائف في قصري كلهم معروفون لدي ولكنني ، أعلم انهم من اتباع المنصور

كيف لها أن تعلم ذلك .لم يكن وقتئذ فرق وأحزاب ورجال تتحيز لرجال كانت متحدة مع المنصور فكرا وعقلا، متفقة معه قلبا ولسانا . كانت يدهامع يده في كل أمر وكل مشروع ، فترى فيمن يعينهم المنصور أنهم رجالها الصادقين فليس سبيل الى سوء الظن ، كان الزمان زمان اخلاص واتحاد أما اليوم وقد زال ما بينهم من طمأنينة فابتدءا يراقبان حركات بعضهما وقد تنقب كل منهما ببرقع النفاق فهي الان تنصب له الفخاخ سرا وقدعلمت بآماله وأمانيه فسعت أولا في جعل رجال القصر محببين منها وقد أظهرت في هذا السبيل همة جديرة بالتقدير والاعجاب

تبدلت الحال بغير الحال وصار قصر الزهراء مسرحا للفتن والدسائس وصبيحة تراقب ذلك بسرور ولاتألو جهدها لانقاذ ابنها ونفخ روح الحياة في نفسة الخامدة

ماكانت تهتم بذلك قبل الآن وتسعى في ايقاظه من ذلك الخمول فقد كان عاجزا خاملا لا يشعر بالحاجة الى سؤال الوزراء عما يفعلونه أو يديرونه من الامور

لم يسبق لصبيحة أن اهتمت بشأن ذلك العاجز المسكين وأن توجع اليه في الشئون الخطيرة ، أما الآن فانها تشعر بعد أن وقعت

الواقعة ورأت اقتراب العاصفة التي تكاد تقتلع عرش ابنها انه محتم عليها ان توقظ هشام من غفلته العميقة وقد تم لها ماأرادت فسعت في تنفيذ خطتها سرا دون أن تدعو محمداً المنصور يعلم فانها كانت تذهب صباح كل يوم لزيارة ابنها فى غرفته الخاصة وتورد له الاحاديث الطويلة والمباحث المهمة لتزيل ماعلى قلبه الغافل من صدأ البطالة والخمود

تعبت فى سبيل غرضها وسهرت الليالى الطوال ترتب الدروس المؤثرة التي تحرك النشاط فى هذا الدماغ العاطل ، فشقت وتألمت وكدت ، لكن مساعيها أثمرت وظهرت لها نتائج خطيرة ذات بال ، فقد حدثت معجزة فى بيت الزهراء ، استيقظ هشام من نومه ، استيقظ الخليفة المنهمك فى أذواقه من تلك الغفلة ، دبت فى نفسه عوامل الحياة وأراد أن يدخل المعترك ويشترك فى الحكم وأن يفهم ويشعر وتكون له ارادة وسلطان

استمرت صبيحة تلقى على ابنها دروس الانتباه واليقظة حتي استفاق من سبات غفلته وتذوق طعم الرياسة وحلاوة الامر والنهي بدرجة استرعت انظار الملتفين حوله بما فيهم المنصور ، وهو أكثرهم دهشة وأشدهم حيرة وقدعلم ان هذه المعجزة الباهرة انما أثر من آثار صبيحة

صار الخليفة الان يشدد التفكير ويبحث وينقب ويطلب

الايضاحات اللازمة عن حساب بيت المال ووجه الى المنصور أسئلة دقيقة ما كانت لتخطر له بال حتى انتهى به الامر الى أن يعامله بفتور وبرود

لم يكلف المنصور نفسه عناء البحث عن سبب ذلك . كيف يسأل عن السبب وهو لايرى مولاه الخليفة ولا يتقابل به الا بحضور والدته صبيحة ؟ أظلمت الدنيا فى وجهه وشرع يتلمس سبيلا لمقاومة الخطر فصال صولة فى ميدان الكفاح انتهت بطرد وابعاد بعض من اشتهر فى اخلاصهم من موظفى قصر الزهراء ولقد غضبت صبيحة لهذه الصدمة غضبة مضرية، كانت سببا في اشتداد عزيمتها وزيادة همتها فأعملت فكرها لتنتقم لنفسها من هذا الغريم الشديد البأس واهتدت اخيراً الى فكرة سديدة فاستدعت بعض عبيدها المحررين وكلفتهم بالتوجه الى جهات مختلفة من الاندلس وافريقيا ومراكش لافهام الشعب بمركز خليفتهم واذاعة خبر ضعفه وطموح المنصور الى مقام الخلافة، فراجت اشاعتهم وانتشرت فى طول البلاد وعرضها ومنها علم الناس ان خليفتهم واقع فى أسر ظلم معنوى وانه راغب فى التخلص من هذه القيود ليحكم شعبه على سنن العدل ومناهج الانصاف لولا حيلولة المنصور بينه وبين مايريد

أدي رجال صبيحه ما كلفتهم به بأمانة واخلاص فاجتازوا

جبل طارق الى افريقية وتمكنوا من اكتساب مودة ومظاهرة والى مراكش لهم وهو يومئذ زيري بن عطية الشهير ، زعيم قبيلة الزيرين وما كاد يسمع بهذه الحوادث ويعلم ان الخليفة تحت أسر المنصور واستبداده المعنوى حتى احتدم غيظا وشرع فى تجريد قوة من رجاله ليرفع لواء العصيان والتمرد فى وجه المنصور ، انتصاراً للخليفة البلاد ولكن كان يعوزه المال لتنفيذ العمل ، فسرت صبيحة بهذه النتيجة وبادرت باسعافه

كانت خزينة الدولة فى دائرة خاصة داخل قصر الزهراء وبها من الأموال مايقدر بنحو ستة ملايين ديناراً فسحبت الاميرة من المال مبلغاً قدره ثمانون الف دينار وضعته فى مائة جرة مختومة أفامها بالعسل ، دفعا للظنون والشبهات ، ودفعت هذه الجرار الى رجال أمناء لتوصيلها الى مكان معين وبذلك تمكنت من ايصال المال الى مراكش بامان وسلام

كانت صبيحة تعلم قدر والى مراكش وتعلم أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مقاومة عدوها المنصور وبذلك لم تأل جهداً في مساعدته . على أن خبر هذه المساعدة اتصلت بمسامع المنصور ، فافرغ في روعه لانه لم يتوقع حدوثها وكأنى به يقول هل للخليفة علم بذلك ؟ والا كيف تمكن واخرج المال من أبواب القصر ؟ اشتدت حيرته واضطرمت احشاؤه بنيران الغيظ والكمد وأصبح ينظر

الى افق المستقبل فيراه متلبدا بسحب الاكدار وغيوم الاضطرابات فهل هو الآن امام عاصفة قريبة تقتلعه من مركزه ؟ كل هذه أمور فكر المنصور فيها مليا وبعد طول البحث واجهاد الفكر استدعى وزراء الحكومة ووكلاء الدولة لمجلس عام عقده فى قصره حيث أبلغهم بحدوث سرقة مبالغ كبيرة من مال الدولة وانه علم بعد البحث والتنقيب أن السرقة تمت بدلالة نساء من قصر الخليفة وعلى أثر دهشة الوزراء بذلك اقترح عليهم نقل الخزينة الى دائرة أخرى بعيدة عن مكانها الحالى فأقره المجتمعون على ذلك . وبينما كان الرجال المكلفون بتنفيذ الاقتراح على وشك نقل الاموال المودعة بالخزينة ، دخلت عليهم صبيحة وصاحت فيهم تقول : « ماهذا الجرأة : كيف تقدمون على ارتكاب مثل هذا الامر دون اذن الخليفة . انى آمركم ألا تمسوا الخزينة لانه غير راض عن نقلها الى مكان آخر »

لم يجد اتباع المنصور بدا من اطاعة الامر أما الملك الكريم أى المنصور فاشتدت حيرته وزادت همومه حينما بلغه الامر ولكن كتمه فى أعماق نفسه مكرها مرغما والا فما الذى يستطيعه وكيف يخالف امر الخليفة جهاراً ويرفع لواء العصيان في ظروف قاسية لا تسمح بأدنى خلاف بينه وبين العرش ، لاسيما وقد طرقت مسامعه الاشاعات التى اجتهدت صبيحة فى ترويجها بين عموم الشعب ؟

لا يعرف الناس شيئاً عن هشام ولا يذكرون الا اسمه ولكنهم ماز الوا يقدسونه في نفوسهم لانه ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن وسليل الاسرة الاموية . اذن ليس في الامكان اظهار التمرد جهاراً بياناً فما هو الطريق المؤدى الى تحويل مجرى الحوادث ؟ هل يقبل المنصور على نفسه الانكسار والخضوع بعد ان وصل بكده وبسعيه اوج العز والاقبال ؟ ايخفض الان جناحيه بعد ان كان يبسطهما للحماية سواه ؟ كان لا يحنى رأسه ولا يرضى بالمذلة يوما ما . كان سلطان الماضي وهو الآن امير الحاضر فيجب على المستقبل ايضاً أن يطيعه . كيف يرضى المنصور ، ذلك البطل الذي رفع لنفسه لواء فخر دائم الخفقان في طول البلاد الاسلامية من أقصاها لاقصاها أن يذهب ضحية حيلة سياسية امتها صبيحة كيف يستطيع صبراً على الاندحار بعد تقدم دام عشرون عاما كان عليه ان يواجه الخليفة بمفرده . ان هشاما لينحنى امام وزيره اذا تقابلا على حدة دون ان تكون معه والدته ، تعضده وتظاهره . كان المنصور يعلم موضع الضعف من مولاه الخليفة ويعلم انه لا يستطيع ان يقابله ببرود وان يشدد عليه النكير الا اذا كانت معه الاميرة اما اذا لم تكن هى بجانبه فكل عزم الى ضعف وكل شجاعة تنقلب الى جبن وانهزام وكانت صبيحة تعلم هذا الامر وترى أن ابنها لا يستطيع الثبات امام نظرات وزيره الحادة ولا يتمكن من الدفاع عند

مايسل عليه لسان طلاقته وسلاح بيانه ولذا كانت تخشى عاقبة تلاقيهما على انفراد وتخاف ان ينهدم بناء سياستها رأسا على عقب فى لحظة واحدة انما المنصور سعى ، واجتهد حتى توصل بمعونة رجال القصر أنفسهم الى مقابلة مولاه مقابلة سرية دون أن يعلم به أحد . كانت الاميرة صبيحة ملكة ذات سياسة وتدبير حنكتها الظروف والايام وزادتها التجارب خبرة فى الحياة وانما لم تكن سعيدة الحظ مثل المنصور ولذا كتب عليها الاندحار والفشل فى نهاية الامر

عند ما مثل المنصور بين يدي الخليفة لم يعبأ بما نال مولاه من الدهشة والاضطراب بل ابتدأ الكلام بما يريده من القول بسلاسة وطلاقة اشتهر بها حتي أثر على الخليفة رضيق دونه المذاهب فنسى أنه الخليفة وأنه صاحب النهى والامر وأن فى يده قوة غير محدودة ونسى تعليمات والدته ووصاياها أمام نظرات المنصور وأمام سحر بيانه وطلاقته ولم يتردد في الاعتراف بعجزه (١) عن الحكم وتدبير الملك وأنه سيتنازل له عن كل سيطرة وسلطان ولايتداخل فى شئون البلاد وأنه يرضى بنقل الخزينة خارج قصره اذا شاء وزيره المنصور . لم يكتف المنصور بهذا الاقرار بل انتهز هذه الفرصة واستدعى بعض وكلاء الدولة

(١) دوزى

وأشهدهم على هذا الاعتراف بعهد موقع عليه من الخليفة ومدون فيه ما تعهد به لوزيره شفويا (١) وقد أمضى عليه الوكلاء لاثبات شهادتهم

حدث هذا الامر فى العام السابع والثمانين بعد الثلاثمائة من الهجرة وبهذه الحادثة نال المنصور أكثر مما كان يتمناه ويحلم به بسهولة لاتخطر على بال

أعلن العهد بعد ذلك وعلم الناس بخبره فأصبح من العبث التمرد والعصيان فى سبيل سلطان عاجز عن الحكم ، يعترف بلسانه أنه ضعيف فاتر العزيمة ، يكل أمور الدولة ومهام السلطنة الى وزير صادق هو المنصور — لم يكتف بهذا الانتصار بل أراد أن يظهر للناس أن خليفتهم وقع على العهد باختياره وارادته وأنه لايوجد ثمت خلاف أو نفور بينهما ، فاستصوب أن يخرج اليهم بجانب الخليفة راكبا فرسه في موكب عظيم لهذا الغرض وقد تم له ما أراد . ما الذى يستطيع أن يعمله الانسان لاسير لايشكو من أسره ، يعيش باختياره تحت النير ، لحاكم يعترف بعجزه عن الحكم ، لسلطان لايتأثر من التنازل عن نفوذه واقتداره لغيره ، لخليفة لايرى بأسا من الخروج الى شعبه غداة اعترافه المخجل . اللهم لاشئ سوى الأسف والتألم ولقد كان من حسن حظ

(١) ابن خالدون

المسلمين ان وجد فى عصر حاكم عديم الحس مثل هشام ، وزير مقتدر مثل المنصور ليستبد بأمور الدولة فلو بقى زمام الحكم فى يد الخليفة لما تردد من فتح أبواب قلاعه لامراء الفرنجة وان التاريخ لا ينسى قوله للعصاة وهو فى محبسه بعد وفاة المنصور « انقذونى وأنا أعدكم حتى بالعرش » (١) فهل هناك (٢) أمل فى انقاذ حاكم هوى بنفسه الى هذه الدركة ورضى بأن يشرب كأس الهوان حتى الثمالة لم يكتب المؤرخون شيئاً عن حالة الاميرة عند سماعها باعتراف الخليفة وماذا عساها أن تقول فيمن لا يخجل من ترجيح الاسر على الحرية بعد سعيها المتواصل فى سبيل ذلك فاذا استطاعت أن تعمل شيئا بعد ذلك فلمن ؟ هل لابنها القائل بنفسه (لا أريد ان أحكم فى بلادى) ان دناءة ابنها كان انكساراً ثانيا لا آمالها . لم تكد جراحها التى أدماها المنصور تلتئم حتى أصابها ابنها بجرح آخر فى صميم قلبها ادمى احساسها الوالدى .

مع كل ما مر بها من الآلام وما عانته من المتاعب لم تشأ ان تريح نفسها حتى فى ايامها الاخيرة . انهدمت قصور آمالها وضاع نفوذها وانخفض جناحها ولكنها مع ذلك لم ترض ان تقبض يد همتها عن شعبها ، اهالى قرطبة المحبوبين منها .

---

(١) دوزى (٢) الاميرعلى

همة صبيحة أكبر من أن تكل ونفسها العالية لا ترضى بحياة المطالة والكسل لم تتداخل فى شئون الادارة ولكنها خدمت أمتها من طريق آخر وعملت على سعادتهم ورفاهتهم من سبيل غير سبيل السياسة ، فقد بذلت ما فى وسعها لانشاء المساجد والمستشفيات وبناء المدارس والملاجئ وبينما كان المنصور يدير حركة البلاد بمهارة وحذق ويختم حروبه بالنصر والظفر ، كانت هى تحفر الجداول والعيون وتنشيء القناطر والجسور وتجتهد في اكتساب حسن الاحدوثة وجميل الذكرى بين قومها ، ان أعمالها النافعة وحسناتها العديدة أدهشت حتى جيرانها أمراء الفرنجة الذين لم يتمالكوا من اعظامها واجلالها والاعتراف بمالها من فضل وخير فأقاموا الحفلات بشرف ذكرها عند اتمام طريق مائي مهم وقد ركزوا عليه لوحة لتخليد ذكرها بهذه العبارات

« بنى هذا الطريق المائى بهمة الاميرة صبيحة أم أمير المؤمنين الخليفة هشام جزاها الله خيراً فبمروءتها وفضلها لم تحرم ولايتا (السيجيا وكارمونا) (١) من الماء » أما المنصور فقد وجه همته الى رفع شأن الاندلس بالغزو والحروبات فاستتب الامن داخلا وارتفع شأن البلاد خارجا وأصبح هو حاكمها المعروف بالشجاعة والكرم والمتصف بالعدل وحسن الادارة . وفى العام

(١) كوند

الثانى والتسعين بعـد الثلاثمائة خرج المنصور غازيا للمرة الثانية والخمسين (١) اقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم من ولاية قشتالة وقد أبدى العاصون مقاومة كبيرة واشتد القتال حتى اضطر ابن أبى عامر للوثوب الى الصفوف الامامية (٢) مستبسلا والسيف بيده لبث روح العزم فى أفراد جيشه وبعد كفاح شديد أحرزوا النصر ولكن بعد أن أصيب قائدهم المنصور بجراح بليغة ، استشهد على أثرها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ودفن بمدينة سليم حسب وصيته

مات محمد المنصور وبموته فقد الاندلسيون ركنا من أركان شوكتهم ، توفى رجلهم العظيم وبوفاته انصدع بنيان اتحادهم فيالهول المستقبل المخيف ، المستقبل المظلم الذى يهدد كيان الاندلس لبسوا عليه ثياب الحداد وشقوا الجيوب كأنما كان حزنهم وحدادهم على نحس طالعهم الذى بدا فى أفق السياسة . لم تعش صبيحة كثيرا بعد المنصور فقد توفيت فى العام الثامن والتسعين (٣) بعـد الثلاثمائه ، أى بعد تلك النكبة بستة أعوام لقد تصالحا قبل وفاة المنصور ولكن صلحهما كان ظاهريا اقتضته الظروف والا فان

---

(١) تاريخ الاندلس اضيا باشا

(٢) ابن خلدون

(٣) قاموس الاعلام

الدموع التي ذرفتها قد جعلت بينهما هوة من الآلام يصعب اجتيازها فان الاعوام الاخيرة من حياتها مضت بين جدران النسك والعبادة وقد كان لموتها صدى حزن عميق في نفس الشعب لا يقل أثراً عن حزنهم لدى موت المنصور وقد رثاها كثير من الشعراء وفيهم ابن دراج حيث شبهها بنجمة الاندلس. حقاً إن (صبح) كانت من أشد النجوم تألقاً فى سماء الاندلس ، كان هناك أمل فى أن تحيا الاندلس حياة رغد ورفاهة طول حياتها أما وقد أفل نجمها ولم يبق أثر السلطان المنصور ولا بأس الحكم ولا شوكة عبد الرحمن ، فلم يبق أمام الاندلس سوى السقوط والانحدار لماذا ؟ لان الخلافة انتقلت الى يد هشام ، ذلك الخليفة الجبان العاجز الذى كان الاندلسيون يخشون حكمه ، وليس هيبة منه وانما خوفا من عجزه وضعفه .

لم تر صبيحة بعينها خاتمة قرطبة ، تلك الخاتمة السوداء التي تهز حتى اليوم أوتار القلوب فى بلاد الاسلام بضربات الحزن والالم . لو قدر لها أن تعيش بضعة أعوام أخرى لترى تقسيم عاصمتها لانهمرت عيناها بالدم بدل الدموع . ماتت دون أن ترى شيئاً من ذلك ماتت فى بيت الزهراء وهى تنظر الى نجمة تلمع على صفحة حوض من أحواض حديقتها الزهراء فى مساء يوم لطيف حزين مؤلم ، وقد كان آخر المشاهد انطباعاً فى نظرها ، منظر تلك النجمة التى تستحم مرتعشة فى أحواض بيت الزهراء

الخاتمة

كتب موسى بن نصير والى المغرب ، الى الخليفة عبد الملك ابن مروان، يصف له الاندلس ترغيباً فى فتحها ، فقال :

« الاندلس جنة فيحاء تشابه الشام بحسن موقعها واليمن باعتدال مناخها والهند بأزهارها ونباتها ومصر بخصوبتها ونمائها والصين بأحجارها الكريمة ومعادنها النفيسة » وأعقب ذلك خروج طارق بن زياد لغزوها وتحت امرته اثنا عشر ألفاً من المجاهدين وإن هى إلا أيام قلائل حتى تم فتحها . مضى على هذا العهد عصور ثلاث تمكن الفاتحون أثناءها ، من ايقاظ أمة جاهلة خامدة وأخذوا بيدها الى مناهج العلم والعرفان تحت أشعة النور الاسلامى ، فلم يمض الا القليل حتى اعتلى الاندلسيون ، اعتلت تلك الامة التي كان القساوسة تسوقها كالاغنام ويذيقها الحكام صنوف العسف وألوان الاضطهاد ، وأصبحت بعد زمن وجيز مطمح أنظار أوربا وموضع الدهشة والاعجاب من أهلها

دهشت أوربا من مدنية اسبانيا ثم أخذت تقترب منها على مهل (١) وترد مناهل علمها وعرفانها وحياض مدنيتها ارواء

---

(١) رينان

لظمئها وبعد فتح الاندلس وجه العرب همتهم الى عمرانها وزينتها ، وكانت الحروب قاصرة إما على دعوة الامراء المسيحيين القاطنين في شمالها الى الهداية واما على رد هجماتهم من حين لآخر . إن المسلمين الشغفين بالامور الزراعية شغفهم بالحروب صيروا الاندلس حديقة جميلة (١)

الصناعة والتجارة ، العلم والعرفان ، الشهامة والمروءة كل هذه مزايا كان مسلمو تلك الايام يتهافتون على التحلى بها واكتسابها أما أخلاقهم الحسنة وشرف نفوسهم فكانت عالية تفوق أخلاق المسيحيين حسناً حتى أن أعداءهم ، أمراء الشمال كانوا لايستنكفون من مداواة مرضاهم ومجروحيهم فى البيوت الاسلامية بمعرفة أطباء المسلمين ارتكانا على مروءتهم وشهامتهم فى تلك الايام وقد اتسعت دوائر العلوم والفنون ارتقت الامة تبعاً لذلك وأصبحت المروءة وعزة النفس غريزة فى نفس كل مسلم .ان الخصال الحميدة التي كان يتصف بها طائفة الفرسان فى أوربا ، تلك الخصال التي تقرأ وصفها فى كتب الفرنسيين فنعجب بها ،هى خصال المسلمين الحقيقيين ولو علمنا مقدار ماكان يبذله المسلمون فى تلك الايام من الاحترام والاعتبار للمخدرات الاسلامية بل لكل النساء مسيحيات كن أو مسلمات (٢)

---

(١) سلفستر (٢) روح الاسلام للامير على

لو علمنا مقدار احترامهم واعتبارهم لهن ثم نظرنا الى حالتنا اليوم فلا أدرى كم يكون الاسف مراً أليما

عنـد ماحاصر والى قرطبة مدينة (توليدو) عام ١١٣٩ ميلادية كانت الملكة (برانجر) محصورة في قلعة (آزاقا) داخل المدينة . وعند ما هجم الوالى بعساكره على المدينة يريد فتحها أرسلت الملكة تقول :

« ليس من الشهامة الاسلامية محاصرة امرأة فى مدينة والهجوم على القلعة التى هي بها » فاستصوب الوالى رأيها وغض النظر عن الهجوم وإنما طلب أن تظهر نفسها لهم من احدى شرفات قصرها وبمجرد اظهار نفسها لهم قدم الوالى احترامه وعاد بعسكره الى قرطبة بعد أن اعتـذر لها فقل لي بربك ألا تستحق أن تضاف هذه الحادثة الى سجل الشهامات والمروءات ؟ وهل تقل درجة عن أعمال (بايارا) و (سيدنى) ؟

سمع محمد المنصور بعد رجوعه عن غزوة (قومبوستال) أن امرأة مسلمة محبوسة داخل القلعة فأمر باحضار ملك النافار أمامه ليقدم المعذرة على هذا العمل الفظيع وهو على ركبتيه فحضر الملك وطلب العفو والمعذرة جاثيا على ركبتيه (١) وبعد أن تم تخليص المرأة المسلمة على هذه الصورة عاد بجنوده الى العاصمة

---

(١) لاذبول

كان الزمان ، زمان عظمة وقدرة وجلال وكانت الاخلاق الاسلامية على أصلها لم يتطرق اليها عوامل الضعف وبذور الفساد وكان المسلمون أصحاب القوة والسطوة . وكانت الايام أيام نور وخير ونماء وكانت الامة المحمدية أمة العلوم والصناعات وصلت مدنية الاندلس أيام عبد الرحمن وابنه الحكم وفى عهد صبيحة والمنصور الى ذروتها وغايتها حتى أن اسبانيا لم تر قبل أو بعد هذا العهد مثل ما رأته فى أيام هؤلاء الابطال (١) الزراعة والصناعة والتجارة وزخرفة الذهب والفضة والنسيج والحياكة لم تكن في قرطبة فقط بل كانت منتشرة فى غرناطة واشبيلة ومرسية . وقد كانت هذه المدن أشهر من نار على علم فى صناعة الاسلحة

كتب (دون بدرو) فى وصية له فى القرن الرابع عشر الميلادى، يقول : بين المخلفات التى اتركها يا ابني سيف مصنوع فى اشبيلية محلى بالنقوش الذهبية ومرصع بالاحجار الكريمة فأوصيك بالمحافظة عليه » أما اشتغالهم بالصنائع النفيسة وفى العمارات والعلوم الفلكية فقد اوقع اوروبا فى مهاوى الحيرة والاعجاب

سفراء اوروبا وملوكها وملكاتها الذين أموها للزيارة كانوا يفتتنون بأبهة قصور عبدالرحمن ومافيها من آلات النعمة ورياش

(١) ريناك

الترف . لم تكن قرطبة زينة الاندلس فحسب بل كانوا يعدونها أعجوبة العالم (١) لم يبق انسان لم تدهشه المدارس المنشأة في عهد الحكم الثانى وما تجلى فى عصره من مظاهر العلوم والفنون (٢) لم يبق انسان فى ذلك الزمن لا يعرف القراءة والكتابة أما كفاءة المنصور وقدرته وعدله فقد سار بذكرها الركبان حتى أصبحت اسبانيا من أقصاها الا قصاها ترتجف فرقا من صولته وبأسه يذكرون عنه أنه في غزوة من غزواته لاخضاع احدى المدن الثائرة ، نسى أحد الجنود وكان من حملة اللواء لواءه فى المعسكر أمام المدينة وبعد انتهاء الغزوة وعودة المنصور بجنوده ظل اللواء فى مكانه منسيا وأخذ الاسبانيون يرمقون اللواء ولا يستطيعون الوصول اليه خوفا من عودة المنصور بجنوده ولم يتمكنوا أخذه الا بعد مضى أيام عديدة واطمئنانهم من عدم رجوع الجيش

اما سياسة صبيحة ومهارتها فى الاحكام وآثار الرحمة والشفقة التى كانت تبديها للفقراء والمحتاجين وبذل ما فى وسعها لعمران المملكة بانشاء الجسور وحفر الترع وعيون الماء وتأسيس المدارس والجوامع فهذه امور مسجلة بالفخر والثناء ليس في التواريخ الاسلامية وحدها بل فى التواريخ الافرنجية لاسيما ما كان متعلقا منها بتاريخ اسبانيا

---

(١) لوبون (٢) ابن خلدون

إن ظهور صبيحة فى مثل هذا العصر المشرق المنير برهان كاف على فضلها وجميل مزاياها لو اردت ان أحصى الشهيرات من نابغات الاسلام فى ذلك العصر لاحتاج الامر الى عدة صفحات

كانوا في هذا العهد شغفين بالعلوم والمعارف حتى انهم جميعاً، كباراً وصغاراً ، رجالا ونساء، وقفوا حياتهم في سبيل العلم والنور في ذلك العهد لم يكن للرجال فضل على النساء فى العلوم والفنون بل ان النساء كن المرشدات الملقنات وكان الرجال يستفيدون من هذا الارشاد اعا فائدة . كان الرجال يخدمون نساءهم فى الاندلس لاقتدارهن وذكائهن وفضلهن وانهن لجديرات بذلك (١)

هذه هي الاندلس فى عصورها الثلاثة اما وقد ماتت صبيحة وظل هشام على العرش كما يريدويهوى فقد ابتدأ أساس السلطنة في التزلزل وتطرقت اليه عوامل الفساد . أراد كل انسان أن يستفيد ويعمل لنفسه على حساب هذا الخليفة العاجز وفى النهاية دبت عوامل النزاع والشقاق بين عائلته ووزرائه وأمرائه وتابعيه وعصفت عواصف الفتن والدسائس في بيت الزهراء وصار الخليفة العوبة بينهم يجلسونه على العرش ويخلعونه منه من حين لآخر وصارت غرفة العرش مسرحا يتقاتلون فيه

(١) روح الاسلام للامير

ويتنازعون فى أرجائه وفى مدة وجيزة جلس على العرش عشرون خليفة على التوالى بسرعة يصعب على الانسان تمييز المدة التى يستغرقونها بين الجلوس والخلع وبين الارتقاء. وولى ذلك ظهور القلاقل واندلع لسان اللهيب الى أطراف الاندلس قاطبة فاستقل كل وال بولايته ثم تشاحن الولاة فيما بينهم وتقاتلوا وظهرت على أثرها المذابح فتخربت المدارس والمكاتب وانهدمت المساكن والقصور ثم التجأ بعضهم الى أمراء الفرنجة وطلبوا معونتهم ولم يمض الا اشهر قلائل حتى استولى العدو على نحو عشرين مدينة وقلعة (١) أما بيت الزهراء وقصر الظاهرة فأصابهما ما أصاب غيرهما من الخراب والدمار وأصبحا في اربعة أيام أثراً بعد عين احترقا ولم يبق من أنقاضهما الا الرماد وتعاقبت في قرطبة فرق وأحزاب وشيع فمضى ذلك العهد كالاحلام السارة التى يراها المرء فى منامه ولم يبق من آثاره الا حسرة فى النفس نرددها من حين لآخر.

بينما كان محمد المنصور جالساً فى قصر الظاهرة ذات يوم نظر الى أطرافه بحزن وتأوه يقول: «أيتها الظاهرة التعسة أي يد ستشعل النار فى أطرافك وأى حرص سيسبب خرابك ودمارك» لم يمض على قوله زمن كبير حتى أحرقتها أيدي أحزاب مختلفة فذهبت ضحية الفتن (٢)

---

(١) الامير على (٢) ريناك

فهل خطر مثل ذلك على بال صبيحة ايضاً من يدرى ربما تأوهت مثلما تأوه المنصور وربما قالت تناجي نفسها : « أي يد ظالمة سوف تتحكم فيك ياقصر الزهراء . ويا نجمة الغروب في أى الاحواض تعكسين شعاعك الضئيل وقت حصول هذه الفاجعة ؟ » ولكن لا لا . انا لا أريد أن أحدثكم بمصائب الاندلس ولا أريد أن أدمى جراحكم بأحزانها . لا استطيع ذلك لانني لا املك من الكفاءة او العرفان ما يؤهلني لدخول هذا الميدان انما اريد ان أقول ان أبهة الاندلس وبهرجها ماتت وانطفأت بموت الاميرة صبيحة .

بعد أن مر على قرطبة عاصمة الاندلس المشرقة ازمان خاضت فيها فى الدماء والاحزان ، لم يبق للسلطنة ثمت نفس أو روح فانطفأت انوارها فى قرطبة ولم يظهر فيها قبس من الضوء بعد ذلك ، وانما ظلت عائشة لجمهورية اشبيلية .

وظهرت بعض الانوار فى ربوع غرناطة ولكن لم يجد ذلك أى نفع لان بذور التفرقة كانت قد نمت في نفوس المسلمين وثمار المصائب كانت قد أينعت (١) فأجبروا على ترك الاندلس بعد حكم دام ستمائة عام

عند ما سودت هذه الصفحات من ترجمة حياة صبيحة لم

أمالك نفسى من الخروج عن الصدد ولكن كان لزاماً على اجمال ادوار ثلاث . كنت أستطيع ان أهمل هذه الادوار ولكن كان لها تماس بشخصية صبيحة ومحيطها ولذا لم أبال من قيدها بكل فروعها وتفصيلاتها فالقصة وان طالت الا انني اؤمل ان قرائى وقارئاتي لم يتطرق اليهم الملل اثناء تصفحها .

لا اقصد ان اكتب تاريخاً وانما الغرض الذى أرمى اليه هو النهضة النسائية فى عصرنا هذا وهذا الامر لا يأتى الا من طريق العظة والعبرة فسميت جهد استطاعتي للوصول الى هذه الغاية والله اسأل سواء القصد .

﴿ محتويات الجزء الثانى ﴾

٣ كلمة الأميرة

٦ كلمة الكاتب التركى الشهير المرحوم رجائى زاده اكرم بك

١١ سيدة النساء فاطمة الزهراء

٤٨ تاج الرجال رابعة العدوية

٦٣ الخنساء

٩٩ أميرة المؤمنين زبيدة

٤٣ الاميرة صبيحة ملكة قرطبة

٢١٤ خاتمة